دكتور شوقي ضيف

الدار المصرية اللبنانية



الحُبُّ العُذْرِيُّ

عند العرب

توزيع : الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥-٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة
رقم الإيـــداع : ١٨٨٩ / ١٩٩٩
الترقيم الدولى : 977-270-489-7
طبــــع : بدار نوبار للطباعة - شبرا
تليفـــون : ٤٣٠٩٦٠٨ فاكس : ٤٣٠٠٦٤٣

الطبعة الأولى : رمضان ١٤١٩ هـ - يناير ١٩٩٩ م
تصميم الغلاف : هنادى سليط

الحب العذري

عند العرب

دكتور شوقي ضيف



توزيع
الدار المصرية اللبنانية

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

دفعني إلى جمع هذا القَصص المتصل بأحاديث الحب والصبابة من كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب العربى أنى وجدت الشباب يقبلون على قراءة قصص الحب إقبالا شديدا، غير مفرقين فى هذا الإقبال بين الجيد منه الذى يسمو بالأحاسيس والمشاعر والردئ الذى تطغى فيه الغرائز وتجمح الأهواء والعواطف فى غير تردد ولا خجل ولا استحياء.

وشبابنا معذور فى قراءته للنوع الأخير، بحكم رغبته فى الاطلاع، ولما فيه من غرابة وشذوذ كالشذوذ الذى يقرءونه فى قصص الجرائم والجنايات. وهم بذلك يقرءونه لهوا وقطعا لبعض أوقات الفراغ لا التماسا لمثل أعلى فى الحب ولا لغذاء روحى فيه يرتفع بهم عن صغائر الحياة. وإيمانا منى بحاجتهم إلى ما يقدم هذا الغذاء الرفيع لهم فى يسر وبساطة رأيت أن أعرض عليهم طائفة من قصص الحب العُذرى عند أسلافنا الذى يتحول فى بعض جوانبه إلى ضرب من التصوف المجرد من قيود المادة والحس، وهو حب حقيقى عاشه العرب فى عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم الحب ومهما اصطلوا من نيرانه واحتملوا من خطوبه، حتى إنهم ليموتون شهداء فى سبيله، وفيه

تحتفظ الفتاة بجلالها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

وقد صاغ أسلافنا هذا القصص العذرى النقي العفيف في لغة ناصعة أروع ما يكون النصوع، ليس فيها أى إسفاف، بل فيها القوة والجزالة والمتانة والرصانة وهذا الجمال اللفظى الذي يحدث لذة محققة فى نفس القارئ. وأحاديثه لا تجرى نثرا خالصا ولا شعرا خالصا، بل تجمع بين الفنين فتمتع الأسماع حين تصغي إليها كما تمتع القلوب والأفئدة. وإنى لأرجو مخلصا أن يجد فيها شباب القصاصين بيننا أمثلة يحتذونها فى أساليبهم النثرية، كما يجد فيها شباب الشعراء أمثلة ونماذج أخرى تلهمهم التعمق فى تصوير دقائق الحب وعواطفه وأهواله دون التورط في غرائز الجسد وأدرانه.

وإني لشديد الأمل في أن يغرى هذا القصص ومُثُله الخيِّرة العليا بعض شبابنا إلى تمثله والمعيشة فيه معيشة تدفعهم إلى إعادة كتابته فى قَصصٍ حديث، لا يقل عنه إمتاعا ولا جمالا، قصص يعتمد اعتمادا على عناصر الحب العذرى، مجسدا لها فى معانٍ وخواطر، وأحيانا فى ضروب من الحوار، لم تكن تخطر جميعا لأسلافنا على بال. والله أسأل الهدى والتوفيق وأن يهيئ لنا جميعا من أمرنا رشدا.

القاهرة فى ١ يناير ١٩٩٩

شوقى ضيف

الحب

طبيعة الحب

لأفلاطون في الحب محاورة مشهورة تسمى المأدبة، أجرى فيها الحوار بين سقراط وبعض معاصريه من الفلاسفة والأطباء والشعراء والسوفسطائيين ورجال السياسة. والمحاورة في مجموعها تصور مذهب سقراط في الحب، وإن عبَّر كل متحاور عن وجهة نظره، وطبع كلامه بطوابع شخصيته الخاصة.

وقد بدأ أول المتحاورين، فقال: إن الحب أقدم الآلهة وأفضلها، فهو الذى يبعث في الإنسان الإحساس بالشرف وينمِّى فيه الإيثار وروح التضحية. وفرَّق ثاني المتحاورين بين نوعين من الحب: نوع دنئ وضيع يلبي النزعات الجنسية، وهو حب النساء والحب الشاذ للغلمان، ونوع نبيل شريف يخلو خلوا تاما من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الحب النقي البرئ ذلك الحب الذى يرتفع عن الصغائر ويتنزه عن الدنايا والذى يكسب صاحبه المعرفة والحكمة والفضيلة.

وواضح أن هذا الحب الروحي السامي هو الحب الذى ينشأ بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وإن كان الباحثون قديما وحديثا لم يتنبهوا إلى ذلك، وظنوا ظنا فاللا أن المحاورة ترفع من الحب الشاذ، حب الشاب للشابِّ، مع أنها تندد في غير موضع وبصراحة صريحة بهذا الحب، وتشن عليه حربا شعواء. وفي رأينا أن المحاورة جميعها دفاع عن سقراط وتعلق شباب أثينا بآرائه وكلفهم بحواره الذى كان يملأ قلوبهم له حبا وحنانا، حتى زعموا أنه يفسدهم وأنه يَزْدَرى قوانين الخُلق والعرف والدين، وحوكم محاكمة ظالمة أودت به وقضت على حياته. وقد ختمت المحاورة بدفاع قوى حار عنه، ألقاه تلميذه ألقبيادس، وقد

صور فيه الحب العارم بينه وبين تلاميذه، وهو حب نقى برئ ممعن فى النقاء والبراءة، إذ كان سقراط نبيل النفس صافى الطبع كريم الخلق وكان الشباب يفتنون به فتوناً.

ويطنب ثالث المتحاورين – وكان طبيباً – فى التفرقة بين الحب الروحى الشريف والحب الحسى الوضيع، ويجعل من هذه التفرقة مبدأ عاما لا يطبق فى الحياة الإنسانية وحدها ، بل يطبق فى كل الأعمال والفنون، ويقول إن الحب أصل من أصول الكون، ويخرج به من عالم الحس المحدود إلى عالم العقل الواسع، ويجعله منبع كل سعادة وكل خير. أما رابع المتحاورين وهو أريستوفان، الشاعر الكوميدى المشهور فيسوق حديثه فى قصة خيالية فكهة، إذ يزعم أن الكائنات البشرية لم تكن فى أصل فطرتها كما هى اليوم: ذكرا وأنثى، بل كانت ذكرا، وأنثى، وخنثى تجمع بين خصائص النوعين، وكان كل فرد من هذه الأنواع الثلاثة مدورا على هيئة كرة، وله أربع أيد وأربع أرجل يمشى عليها جميعا، وله أربع آذان ووجهان، وهكذا تزدوج فيه بقية الأعضاء. وركب الغرور هذه الكائنات، فثارت فى وجه الآلهة، وغضب زيس الإله الأكبر، فشطر كل فرد فيها شطرين عقابا ونكالا لها، ومضت هذه الأشطار يبحث كل منها عن شطره رغبة فى الاتحاد به كما كان الشأن فى أصل النشأة، وهذا هو سبب الحب، فهو فى حقيقته شوق وتعطش إلى استرجاع السعادة المفقودة. ويتحدث المتحاور الخامس – وكان سوفسطائيا – فيصطنع ألفاظ السوفسطائيين الخلابة، ويقول إن غاية الحب الجمال، ويضفى عليها أروع الخصال والفضائل، ويجعل زينته العفة وكبح النفس عن الشهوات، وثمرته الأنس والألفة والصداقة.

ويتكلم سقراط، فتشرئب إليه الأعناق وتصغى الآذان والقلوب، ويستهل كلامه بالثناء على ما سمعه من المتحاورين، ثم يسألهم – على طريقته – عن بعض ما عرضوا له من وجوه القول، ولا يلبث أن يروى لهم حديثا عن الحب سمعه من

امرأة تسمى ديوتيما، وهنا نرى أفلاطون يتدخل، فيصف على لسان هذه المرأة الحب الأفلاطوني الذى ينسب إليه، وهو حب علوى أشبه ما يكون بتجربة المتصوفة عندنا، إذ يرتبط بنظريته المعروفة في المُثل وما كان يعتقده من أن أفراد كل نوع في الموجودات الحسية والمدركات العقلية قد فاض عن حقيقة مثالية كلية مجردة، لها وجودها المطلق، وكل فرد من أفرادها يقترب منها ويبتعد بنسبة ما يستوفي من خصالها وكمالها.

وعلى هذا الأساس ترجع النفوس الإنسانية إلى نفس عليا واحدة، هي مثالها المطلق الذى انفصلت عنه، وهي لا تزال تحن إليه، فإذا رأت ظلاله في شخص أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحب. وهو عند أفلاطون في درجات، أدناها الحب الجسدى الذى يتيح للإنسان شيئا من الخلود عن طريق ذريته، إذ يحل أولاده محله، فيخلد وجوده الفاني إلى حين. ويلي ذلك الحب الجنسي حب روحي، يعشق فيه المحب نفس المحبوب، وهو أرفع من حب الجسد وأكثر خلودا، إذ يلقن فيه المحب محبوبه خصال الفضيلة والحكمة، تلك الخصال التي يغرسها المحبوب بدوره في معشوقه، وبذلك تكون لهذا الحب الروحي ذرية كذرية الحب الجسدى المادى، إلا أنها أكثر منها قيمة وجمالا. ولا نرتاب في أن أفلاطون إنما يريد بهذا الحب الروحي العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وهو يجعلهم محبوبين له، يشيعون أفكاره وتعاليمه في تلاميذهم أو معشوقيهم، فتصبح له بذلك ذرية يفوق جمالها جمال ذرية الحب الجسدى، إذ شتان بين ذرية الدم والجسد وذرية الروح والعلاقة الروحية.

وفوق هذا الحب بدرجة أو درجات الحب الأفلاطوني المثالى الذى يرقى فيه العقل فوق العالم الحسي ويرتفع عن العالم الروحي المقيد بالأشخاص والناس إلى عالم الجمال المطلق أو عالم المثال. وهذا الحب عند أفلاطون هو غاية الغايات للفيلسوف أو محب الحكمة، وهو الغاية التي ليس وراءها غاية، والفيلسوف لا

يصل إلى هذه الغاية إلا بعد مجاهدات يعانيها، إذ لابد له أن يتجاوز الفرد أو الشخص الذى يتذكر بجسده أو بروحه عالم المثال إلى هـذا العالم نفسـه، فيتأمل مثله الأعلى فيه، ويحبه محبة تملك عليه نفسه، حتى لا يستطيع عنه حولا، أو حتى يستغرق فيه استغراقا خالصا، وهو استغراق شبيه باستغراق الصوفيـة عندنا فـى حب الذات الإلهية وكمالها المطلق.

وتنتهى المحاورة بحديث ألقبيادس عن سقراط، وهو يعـترف فـى حديثه بأن لسانه يقصر عن تصوير ما أصاب به الشباب الأثينى مـن فتـون بحكمته المضيئة المشرقة، وهى حكمة قوامها العقل فـى أبدع صـوره والخير فـى أكـرم مظاهره والحب كأروع ما يكون الحب بين الأستاذ وتلاميذه. وليس ذلك فحسب، فقـد كان مثالا للعفة والشجاعة وأبلى بلاء مشكورا فـى بعـض حـروب قومـه. ومن أجل ذلك كله صبا إليه الشباب في أثينا وكلفوا به أشد الكلف، وكبرت كلمة يقولها خصومه إنه أفسدهم، إذ كان نموذجا أعلى للمواطن الصـالح والفيلسـوف الحق. وهذا إنما هو سطور أخيره فى الدفاع عن سقراط. والمحاورة كلها فى رأينا دفاع عنه وعن تعلق تلاميذه المشروع به، وإن كان أفلاطون قد ضمنها الحديث عن الحب الجسدى الوضيع وعن حبه الأفلاطونى الرفيع.

ومهما يكن فقد صورت المأدبة الحب بجميع صوره الماديـة والمعنوية تصويـرا رائعاً ، ولا نبالغ إذا قلنا إن جُلّ ما قاله مفكرو العـرب ومتفلسـفتهم فـى الحـب نجده صدى واضحا لما دار فى هذه المأدبة وما قاله أفلاطون في «الجمهورية» عن صوره الثلاثة: الجسدى والروحى والمثالى، وأنه يحدث لمشاكلة بين اثنين فى أصل الوجود البشرى. ويؤثر أن جماعة مـن المتكلمين وأهـل الآراء والنِحَل اجتمعـوا يوما بمجلس يحيى بن خـالد الـبرمكى وزيـر هـرون الرشيد، فطلـب إليهـم أن يتحدثوا فى الحب وطبيعته وسببه، فقال على بـن الهيثم: الحـب ثمرة المشـاكلة، وقال أحد الخوارج : إنه لا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين، وقـال

على بن منصور الشيعى: إنه لا يكون إلا من ناحية المطابقة والمجانسة فى التركيب، وقال أحد شيوخ المعتزلة: إنه نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة.

ويدور الزمن دورة ونلتقى بمحمد بن داود الظاهرى الذى ألف كتابا فى الحب باسم «الزهرة» ونراه فيه يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها أئتلف، وما تناكر منها اختلف" ، ثم ينقل عن بعض المتفلسفة اليونانيين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها نصفين، فجعل فى كل جسد نصفا، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه نصفه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة. والصلة واضحة بين هذه الفكرة وما جاء على لسان أريستوفان فى المأدبة.

ويدور الزمن دورة أخرى، فنلتقى بابن سينا الفيلسوف المعروف ونراه يفرد للعشق رسالة، يقول فيها إنه نزوح إلى الكمال المنبعث عن الكمال المحض، ويجعله نوعين: جسدى ينشأ عن القوة الشهوانية، وهو الذى يستعان به على حفظ النوع، وعقلى ينشأ من القوة النطقية لغرض القرب من المعشوق الأول. وهذا الحب الثانى يطابق الحب الأفلاطونى مطابقة بيِّنة.

ونمضى مع الزمن، وإذا ابن حزم الأندلسى يؤلف كتابه «طوق الحمامة فى الألفة والألاف» وفيه يقول إن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخلقة فى أصل عنصرها الرفيع. وابن حزم يردد فكرة أفلاطون فى المثل، فالنفوس الإنسانية ترجع فى أصل نشأتها إلى نفس عليا واحدة توزعت أجزاؤها فى نفوس الناس، ويقول إن هذه الأجزاء تتصل فيكون الحب وتنفصل فيكون البغض. فسِرُّ الحب والبغض فى المخلوقات إنما هو فى الاتصال والانفصال بين النفوس، فالشكل إنما يستدعى شكله، والمثل إلى مثله ساكن. وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافى، والله عز وجل يقول: ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾

فجعل سبحانه وتعالى علة سكون الزوج إلى زوجته أنها منه. ولو كانت علة الحب جمال الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن شخص القبيح في الصورة، وهو خلاف الواقع، ولو كانت العلة للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يوافقه في الشيم وهو ما لا يشهد به أيضا الواقع. فوجب أن يكون الحب شيئا في ذات النفس. فإن قيل إن هذا يقتضي أنه إذا أحب شخص شخصا بادله حبا بحب، ونحن نرى كثيرا من المحبوبين ينفرون من محبيهم، فالقياس إذن غير مطرد، ويبدو أن نفس الذى ينفر من محبه ولا يقبل عليه إنما يبعده عنه بعض الأعراض الطارئة التى تكتنفها من الطبائع الأرضية، فلم تحس الصلة بينها وبين الجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى جسدها، أما المحب فنفسه متخلصة من هذه الأعراض عالمة بمكان من كان يشركها فى المجاورة فى أصل الفطرة، وهى لا تزال تبحث عنه، حتى تجده، فتنجذب إليه كالمغناطيس والحديد وكالنار والحجر، فحبه إنما هو تجديد لحب قديم فى النشأة الأولى، ولعل من الطريف أن نجد هذه الفكرة عند بعض العذريين إذ يقول:

تعلّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفى المَهدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنتقض العهدِ

ويلاحظ ابن حزم أن النفس إذا ميزت فى المحبوب شطرها الذى تبحث عنه ثبتت فيه، أما إذا لم تميز فيه هذا الشطر فإن حبها لا يتجاوز الصورة الجسدية وهو حينئذ يكون حب لذة ومتاع، وهو ليس الحب السامى المصفى الذى تجد فيه النفس كمالها المنشود وإنما هو الحب الجسدى الذى تنقاد فيه لداعٍ غامض يصدر عن غرائزها.

وللحب عند العرب منازل ومراتب متعددة، وأول مراتبه الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقائه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمنى الدائم لرؤية

المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب تعلقا لا يستطيع المحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط في الحب ويغلب أن يلتقي فيه المحب والمحبوب، ثم التَّتيُّم وهو استعباد المحبوب للمحب، يقال تيَّمْته حبا، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب المحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب. وتتكرر مع مراتب الحب كلمات مثل الولع وهو شدة التعلق بالمحبوب، والشجن وهو الهمّ والكرب، واللوعة وهي الألم، وتباريح الحب وهي شدائده، والجوى وهو كتمانه والضيق به، والكمد وهو الحزن الشديد، والوجد وهو الصبابة وشدة الحب، والوله وهو التحيُّر من شدة الوجد، والكلف وهو الاستغراق في الحب، إلى غير ذلك...

وإذا كان العرب قد شغلوا بالحب والحديث عنه كما شغل اليونان الأقدمون فإن الغربيين المحدثين قد شغلوا به وبالبحث فيه وفي طبيعته وأنواعه شغلا متصلا، ومن خير من بحثوا ذلك كله في القرن التاسع عشر ستندال الفرنسي، والحب في رأيه أربعة أنواع: حب استلطافي أشبه ما يكون بالألفة والصداقة، وحب مغرور يرضى به المحب غروره وكبرياءه، وحب جسدي ينبع من الغرائز الجنسية، وحب عاطفي عنيف، وهو حب العشاق المتيمين المشهورين في التاريخ.

وعرض ستندال لنشأة الحب ونموه، فجعله يرقى في سبع مراتب، أولاها مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب، وثانيتها مرتبة الشوق إليه، وثالثتها مرتبة الأمل، أما الرابعة فهي المرتبة التي ينشأ فيها الحب، إذ يحس صاحبه إحساس اللذة والألم فيه. وحينئذ يأخذ الحب في النمو، فيصعد بالمحب إلى المرتبة الخامسة، وهي المرتبة التي يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى في الجمال والسعادة به، بحيث لا يدانيه إنسان آخر في صفاته ومحاسنه. وعبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حين قال لها الحجاج : والله ما أنت كما قال فيك كثير، فقالت له:

إنه لم يرنى بالعين التى رأيتنى بها، ومن أجل ذلك قال بعض المحبين:

ووالله مـا أدرى أزيدتْ ملاحـةً وحسنا على النسوان أم ليس لى عقل

وينتقل المحب عند ستندال من هذه المرتبة الخامسة إلى المرتبة السادسة، وهـى التى يصطلى فيها نيران القلق والخوف والشك المحرقة. ولا تلبث هذه المرتبـة أن تسلمه إلى المرتبة السابعة، وهى أقصى مراتب الحب وأبعدها غايـة، وهـى المرتبة التى يعتف فيها الحب، ويجمح بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا.

وفى هذا القرن، قرن علم النفس والتحليل النفسى كثرت أبحاث النفسـيين فى الحب وعلاقته بالغريزة الجنسية والعقل الباطن الذى تعصف به عواصـف لا حصر لها من الغرائز والرغائب الجسدية والانفعالات الشعورية والعقلية. ويقـول بعض الباحثين إن الحب انحراف بـالغريزة الجسـدية، أو هـو تسام بها، ويقـول آخرون إنه استعادة لذكريات ماضية، بينما يزعم غير واحد أن المحـب إنما يحـب ذاته من خلال محبوبه، فهو لا يرى فيه إلا نفسه، وكأنه مرآة صافيـة لـه، فيحلـم به وهو إنما يحلم بنفسه، ولكل محب طريقته فى الحلم. ومن خلال هـذا الحلـم لا من خـلال الحقـائق المجردة تغنى المحبون بمـن يحبونهـم ونظمـوا فيهـم أشعارهم الغرامية، التى تبعثها تلك القوة السحرية العجيبة قوة الحب التى تعمى المحب عن رؤية أى نقص فى محبوبه، بل التى تجعلـه يضفـى عليه جميع الخصال والمحاسـن، حتى لكأنه نسج من أشعة القمر، ولا يزال يعيش فى هذا الخيـال أو هـذا الحلـم منتشيا بشرابه الصفو الهنئ.

عوارض الحب

متى برَّح الحب بصاحبه أصبح إنسانا غير عادى، فهو يعيش فـى عـالم خـاص به لا يرى فيه إلا محبوبه وخياله، وكأنما تضيق فى عينه آفاق الكون، فتصبح أفقا

محدودا، بل رقعة محدودة يملؤها المحبوب والفكر فيه والتأمل في جماله، ولعل ذلك ما يجعل المحب ينطوى على نفسه، فمحبوبه كل همه وفكره وشغله، وهو لا يأنس إلا إليه وإلى ما يذيقه من رحيق حبه وحريقه.

ويدفع ذلك المحب إلى أن يعيش في عزلة عن مجتمعه، فقد ملأ عليه محبوبه كل وقته، وأصبح فتنة فاتنة له، لا يستطيع انصرافا عنها ولا تخلصا منها، وكأنه – كما يقول بعض النفسيين – يرى فيه نفسه وذاته أو يرى فيه الصورة التى كونتها غرائزه وعواطفه وانفعالاته التى اختزنها فى عقله الباطن على طول الزمن، فهو يرى فيه الماضى والحاضر والوهم والحقيقة والخيال والواقع. ومن كل ذلك تتألف صورة المحبوب الجميلة الرائعة التى تستأثر به خالبة للبّه، مالكة عليه كل شئ من أمره.

وكأن المحبوب يجمع للمحب كل ما انفعل به وتأثر فيما مضى من حنان أمّ أو شفقة أب أو عطف أخت ومن جمال وجه أو لون شعر أو طابع حسن أو نظرة ساحرة أو نغمة صوت وغير ذلك مما يستقر فى عقله الباطن، فإذا ما صادف شيئا من ذلك في شخص انصب في نفسه هذا التيار العجيب من الحب، أو قل نفذ هذا التيار من عقله الباطن إلى عقله الظاهر، فتسلط عليه هذا الشخص، أو قل سلط عليه هو ذكرياته وقوى خياله، فإذا هو يستحيل فى نظره الى كائن شعرى فاتن أخاذ. وهذا هو سر الحب عند بعض النفسيين وسر رابطته السحرية التى توثق الأواصر بين المحب ومحبوبه، فإذا هو تكفيه منه النظرة والإيماءة العابرة، أما الوصل فهو كمال الأمنية ومنتهى الأمل والفرح الذى لا شائبة معه والصفاء الذى لا كدر فيه. وكل فراق وهجر لا يزيد المحب إلا ولوعا بمحبوبه، وكذلك كل عذل ولوم، وكم شكا المحبون من العذال والرقباء والوشاة، وإنهم ليضنون ويسقمون ويطول بهم السهر والسهاد ويتعذبون عذابا ممضا، وهم منتشون لا يفيقون، سعداء بكل ما يألمون، أو كما قال الشاعر:

هو الحُبُّ فاسلم بالحَشَا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنًى به وله عقْلُ
وعِشْ خالياً فالحبُّ أوّلُه عَنَا وأوسطه سُقْمٌ وآخره قَتْلُ

وربما انتهى الحب بصاحبه إلى حال من الهيام تشبه حال المجانين، كما نعرف عن مجنون ليلى فى القديم، إذ يصيب المحب ذهول كذهول المجانين يأتى من استغراقه فى محبوبه وملازمته لفكرة واحدة هى فكرة حبه وثبوته عندها لا يفارقها، بالضبط كما يحدث لبعض المجانين حين يلزمون فكرة، لا يتحولون عنها ولا ينصرفون.

وإذا بلغ المحب هذه الدرجة من الفتون والجنون بمحبوبه لم يعد من الممكن أن يخلص من حبه وحلمه به، أما إذا كان حبه معتدلا فمن الممكن أن يخلص منه ويصحو من سكرته. ويحدث ذلك كثيرا إذ انتهى الحب بزواج، إذ يفتح الزواج — فى أحوال كثيرة — عينى المحب المعصوبتين، ويزيل ما عليهما من غشاوة سحرية، فيستيقظ من حلمه ويندم على ما فرط من أمره. وهو لا يندم سريعا، بل يأخذ فى الندم رويدا رويدا وقد تراءت له خيبةٌ مُرَّة. ولذلك كان الناس يخافون من زواج الحب، وهو مهما يكن أجمل وأبقى من زواج المصلحة، وقد يظل المحب على حبه بعد الزواج، وحينئذ يكون الزواج مثاليا، بل يكون حلما ذهبيا سعيدا ليس وراءه ولا مثله حلم.

الحب العذرى

بنو عُذْرة والحب

بنو عذرة إحدى قبائل قضاعة الكثيرة التى كانت تنتشر فى شمالى الحجاز وتمتد عشائرها وبطونها من المدينة إلى الشام، وكانوا يسكنون وادى القرى، وهو واد طويل بين تيماء وخيبر فيه قرى منثورة وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل :

ولقد أجرُّ الذيل فى وادى القُرَى نشوانَ بين مزارعٍ ونخيلِ

وفى هذا الوادى الممرع الخصب كان بنو عذرة يتنقلون بخيامهم، وقد رزقهم الله من الثمرات ما جعل حياتهم رغدة هانئة بالقياس إلى قبائل الصحراء الذين كانوا يقاسون غير قليل من الشظف، حين تجدب مراعيهم، فتموت القطعان ويهلك الناس.

لم تكن حياة بنى عذرة قاسية، ولا كان فيها هذا الجدب المهلك، إنما كان فيها خصب ونماء هيأ لشىء من الفراغ كما هيأ لشىء من الاستقرار وأن تجرى الحياة هادئة، فليس فيها منازعات القبائل على المراعى وما صحب هذه المنازعات من حروب دائرة لا تنقطع.

وكان لذلك أثره فيما خلفت بنو عذرة من شعر، فإننا لا نجد عندها شعر الحماسة والفخر والزهو الذى كان منتشرا بين قبائل نجد، وإنما نجد عندها نمطا آخر من شعر غنائى قوامه التعبير عن آلام النفس إزاء الحب وكأنهم لما فرغوا لأنفسهم أو هيأت لهم حياتهم أن يفرغوا لأنفسهم أخذوا يغنونها هذا الضرب من الشعر الوجدانى.

وليس معنى ذلك أننا لا نجد شعر الحب عند غير بنى عذرة، إنما معناه أنهم أكثروا منه وأن حياتهم أعطتهم الفرصة لكى يغنُّوا أنفسهم، أما بعد ذلك فإن العرب تغنوا بالحب، تغنت به قبائلهم منذ العصر الجاهلى ولكنها لم تجعله كل همها، فقد كانت الغارات تشغلها، وكان الأخذ بالثأر مدار حياتها، فنظمت فى الفخر والمدح والهجاء.

أما بنو عذرة فانطووا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم الذاتية ما جعلهم يشتهرون بين القبائل العربية بهذا الغزل الصافى الرقيق، وكان للإسلام أثره فى نمو هذا الغزل، بما فرض على الناس من أن يغضوا أبصارهم ولا يأتوا بفاحشة ولا ينتهكوا الحرمات.

ولم يقف تأثير مثالية الإسلام عند بنى عذرة، فقد أخذت هذه المثالية تطبع شعر البدو فى نجد بطوابع واضحة من البراءة والطهارة والتسامى، فلم نعد نقرأ شعر الحب الإباحى الذى كان يردده امرؤ القيس وغيره من شعراء نجد فى الجاهلية، إنما أخذنا نقرأ شعرا عفيفا، فيه نبل، وفيه هذا الحزن الذى يصدر عن نفس ملتاعة تخاف الله فيما تأتى من قول وفعل.

وهيأت لهذا الحزن أيضا بيئة الصحراء وما يخيم عليها من سكون وصمت فى لياليها المقمرة الشاحبة، ولذلك لم يكن من الغريب أن تستهل القصيدة العربية حتى فى الجاهلية بالبكاء على الأطلال والديار، فطبيعة البيئة الصحراوية تبعث على الشجا والحزن والألم.

الصحراء والإسلام إذن هما اللذان أعدا لظهور هذا الغزل العفيف الحزين وما طوى فيه من حب نبيل شريف، وهو غزل يعبر عن أسمى العواطف التى يفيض بها القلب الإنسانى. غزل نحس فيه لذع الحرمان وأن الرجل يتهيب الاقتراب من المرأة، فهى كائن ملائكى تحول قدسيته دون لمسه، وحتى هى إن

وصلته لا يزال يشعر شعورا عميقاً بالألم واليأس، بل قد يفضي به حبه إلى الجنون أو إلى الموت، وهو لا يأتي ذلك وحده، بل تأتيه المرأة أيضا سعيدة قريرة العين.

وتستفيض الأخبار بذلك عن بني عذرة وغيرهم من الأعراب في هذا العصر الإسلامي عصر مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس بن ذَريح ، سئل رجل من عذرة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا ، وقال رجل لعُرْوة بن حِزام العذرى: يا هذا بالله أصحيح ما يقال عنكم : أنكم أرق الناس قلوبا ؟ قال: نعم والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت، ما لهم داء إلا الحب . وسئلت امرأة عذرية بها هوى يدنيها من الموت: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت : فينا تعفف ، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفني آجالنا. وقيل لأعرابي: ماكنت صانعا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها وأستر منها ما لا يحبه الله، قيل ، فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أَكِلُ قلبي إلى حبها ولا أصير إلى نقض عهدها. وقيل لأعرابي آخر وقد زوجت عشيقته وأهلها يجهزونها لزوجها : أيسرك لقاؤها ؟ قال: نعم والذى أمتعني بها وأشقاني بطلبها، قيل: فما كنت صانعا؟ قال: كنت أطيع الحب في لقائها والتمتع بحديثها وأعصى الشيطان في إثمها وما يوحي من نزواته، ثم قال: وهل أفسد عشقَ عشرِ سنوات بما يبقى عاره في ساعة تنفد لذتها وتبقى تبعتها، إني إذن للئيم، لم ينجبني أصل كريم. وقيل لبثينة: هذا جميل يتعذب في حبك فهل عندك شيء تنفسين به وَجْده؟ فقالت: ما عندى أكثر من البكاء إلى أن ألقاه في الدار الآخرة أو أزوره وهو ميت تحت الثرى.

وهذا الحب العفيف الطاهر الداحست منه موجة إلى البيئات المتحضرة في الحجاز، فإن أهل مكة والمدينة شاع عندهم حقا غزل صريح نمته الحضارة

والترف اللذان غرقوا فيهما، وهو غزل ثرثار لا يخجل ولا يتألم إلا قليلا، ولكن مع شيوع هذا الغزل نجد أسرابا من غزل عفيف، تتغلغل في تضاعيف هذا الغزل الصريح، فإذا هناك من يشقون بالحب ويذوقون لذته الحلوة المؤلمة. وكانت أهم جماعة غزاها هذا الغزل العذرى هي جماعة الفقهاء وأصحاب الحديث من أمثال عُرْوة بن أُذَيْنة وعبيد الله بن عتبة وعبد الرحمن الجشمي الذى سمع سلاّمة وهى تغنى، فوقعت في قلبه وهام بها حبا، ونظم فيها كثيرا من الأشعار، وكان يعرف بالقَسّ لكثرة عبادته، فلما ذاعت فيها أشعار نسبت إليه، سُميت سلامة القس، وقالوا إنها همت ذات يوم أن تقبله فامتنع عليها، فقالت له: ما يمنعك وأنت تحبني؟ فقال لها ويحك أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ وإنى والله أكره أن تكون صلة ما بينى وبينك في الدنيا عداوة في يوم القيامة، ونهض وعيناه تذرفان بالدموع. وتأثر بصنيع الفقهاء كثير من أهل مكة والمدينة، فكان غير شاعر يرتفع بحبه عن أن يكون عبثا ولهوا، وإذا كان عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين الحضريين في البلدتين يتخذ الغزل فنا من فنون الترف ويقصد به إلى العبث والدعابة، فقد كان وراءه غزلون صادقون يرتفعون بغزلهم عن اللهو والهزل على نحو ما نجد عند الحارث بن خالد القرشي، فقد كان عاشقا لعائشة بنت طلحة، وله فيها أشعار كثيرة تصور وجده وحرقته، ولما قتل عنها زوجها مصعب بن الزبير قيل له: ما يمنعك الآن من زواجها؟ قال: والله لا يتحدث رجالات قريش أن تشبيبي بها كان لريبة ولشيء من الباطل.

وقد ظلت هذه الصورة الرائعة للغزل العفيف المحروم بعد العصر الإسلامي ترافق العرب في عصورهم المختلفة ، فقد تأثرها غير شاعر، بل عاشها كثير من الشعراء أمثال العباس بن الأحنف صاحب فوز المشهور بغزلياته في العصر العباسي، وعنى بها المؤلفون فألف فيها محمد بن داود كتابه الزهرة ، وألف ابن

حزم كتابه طوق الحمامة . وليس من ريب فى أن هذا الحب العفيف الذى يصور صفاء القلب وطهارة الضمير كما يصور احتمال الآلام والمشقات فى صور رائعة من الوجد، ليس من ريب فى أنه هو الذى أعد فيما بعد لظهور الحب الصوفى ، فقد وجد فيه الصوفية نبعا لا ينضب ولا يجف لمواجدهم إزاء الذات الإلهية، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة فى حنايا صدورهم وما قاسوا فى حبهم من صنوف الآلام والبلايا والمحن.

وما الحب العذرى إلا صوفى خالص، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفى فى تغنيه بعشقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالمحبوب، وإنه ليسير فى طريق لا نهاية لها ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفى فى ارتفاعه عن كل صغائر الحياة، لعله يقترب من قدس الأقداس، وصوفى فى ابتهاله وذله وضراعته، وما أشبه شعره بالتراتيل الدينية. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذرى هو الذى أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفى السامى.

غزل وقصص كثير

بين أيدينا من هذا الغزل العذرى تراث ضخم يحفل به كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وغيره من كتب الأدب القديمة، ونحن لا نلم به حتى نراع روعة شديدة، وهى روعة ترجع إلى بساطته وسذاجته كما ترجع إلى صدقه وإخلاص قائله فى تصوير عاطفته، ولذلك كنا لا نقرؤه حتى نتأثر به تأثرا شديدا، لأنه يمثل نفوسا عاشقة حقا، وهى نفوس تتألم، نفوس قد طهرها الحب وصفاها من أدران الحس، فارتفعت عن المادة وكل ما يتصل بالمادة إلى أفق رفيع من نقاء القلب وصفاء الضمير.

والشاعر يمشي في طريق مليء بالصعاب والأشواك، صعاب الهجر والصد وأشواك الوشاة والرقباء، وهو يجاهد ويعاني، لا يتحول عن وجهته، فعينه دائماً معلقة بالمحبوب، الذي سلب روحه وعقله وأشفى به على التلف والهلاك. ومهما صد عنه ولم يبادله الهوى والود، فإنه لا ييأس من بلوغ الأمل المحجوب في أستار الغيب، فالصبح قريب، وهو لا يكف عن الرجاء، مهما تكاثفت الدياجي وتلاحقت الظلمات، فالحبيب سيدنو منه وسيفوز بلقائه، وسينهل من مورده العذب ما يشفي غصصه، ويزيل حزنه وترحه. ولكن أين هذا المورد العذب؟ إنه لا يظفر بنهلة منه تروى ظمأه، وهو إن اقترب منه لا يلبث أن يبعد في صحراء هذا الحب، وهي صحراء موحشة محرقة، تمتلىء بأعاصير لا أول لها ولا آخر. وكم يلقى سالكها من متاعب ومصاعب، وكم يحف به من أخطار ومهالك، وهو باكي العين محزون الفؤاد موزع الخاطر قد امتلأ صدره بالهموم والغموم.

ولا تظن أن هذا الجحيم الذى كان يشتعل في فؤاد الشاعر العذرى كانت حمما ونيرانا خالصة، فإنه سرعان ما يتحول بردا وسلاما ويصبح نعيما وربيعا باسما حين يفوز من محبوبته بوصل أو لقاء أو زيارة فإن الدنيا تشرق من حوله وتصبح بهجة وسعادة خالصة، وهي سعادة لا ينالها إلا بعد التعب والضنا والصبر الطويل. فالثمرة الحلوة لا يجنيها إلا من كابد وعانى، وعلى المحب دائما أن يحتمل أوار الحب وما يلفحه من رياح الهجر، متطلعا إلى نسيم الرضا، وعليه أن يحتمل أشواك الطريق حتى ينال الرضا، وأن يعانى حنادس الليل الطويل حتى يظفر بالفجر الجميل.

وأنت لا تقرأ في شعر هؤلاء العذريين حتى يملك عليك نفسك بهذه اللوعة، بل هذه الغلة التى تتحرق لها قلوبهم دون أن يستطيعوا لها برءا أو شفاء، وأنت لا تجد أثناء ذلك تكلفا ولا ما يشبه التكلف وإنما تجد صدق اللهجة وحدة الشعور وحرارة العاطفة مما يأسر لبك ويخلب عقلك. ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا

الشعر العذرى هو أروع صورة عربية لشعر الحب، فقد محص العشق قلوب هؤلاء الشعراء وطهرها وصفاها بل جعلها طهرا وصفاء خالصا.

وبون بعيد بين شعر هؤلاء الشعراء وشعر أسلافهم الجاهليين، فقد كانوا وثنيين ماديين، وكان شعرهم أو غزلهم ماديا إباحيا، لا كرامة فيه للمرأة ولا إجلال ولا قدسية، فالشاعر يتغزل فيها صادرا في غزله عن غرائزه الجنسية التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، فإذا تركنا الجاهليين إلى كثرة الشعراء المتحضرين في مكة والمدينة ممن كانوا يعاصرون العذريين وجدنا الغزل عندهم تشوبه المادة في كثير من جوانبه، ويقصد فيه الشاعر إلى العبث والهزل والدعابة في كثير من الأحيان، فهو ليس شعر الحب الملتاع ولا شعر الحب العفيف الذى لا يعرف الحس والمادة ولا الهزل والعبث، وإنما يعرف الحب الجاد الحزين وما يبعث في نفس المحب من عاطفة متقدة ومن كآبة وحزن ومن يأس ورجاء وشقاء وسعادة.

وعلى هذا النحو لم يكن غزل العذريين كغزل المتحضرين الذين عاصروهم ولا كغزل أسلافهم الجاهليين، فهو غزل يعبر عن نفوس محرومة قد طهرها الإسلام من كل دنس، وبرأها من كل غرض جسدى تافه، غزل لا يراد به إلى تصوير المرأة وإنما يراد به إلى تصوير هذه النفس العاشقة وما تبتئس به وتنعم في عشقها وما تكابده في هذا العشق من ألوان العناء وما تجنيه من ثمرات مرة حلوة إن صح أن تكون هناك ثمرات حلوة مرة في آن واحد.

والإسلام من غير شك هو الذى هيأ لظهور هذا الغزل، فقد صان المرأة وأسبغ عليها غير قليل من الكرامة والإجلال، وبعث في نفوس هؤلاء البدو مثالية خلقية، جعلتهم أو جعلت أفئدتهم تصغى الى تعاليمه، فإذا هي تخلصها من أدران الجاهلية وأدران الجسد وما يتصل بالجسد، وإذا هذه النفوس قد صفيت وصفى معها الحب، وتخلص من شوائبه المادية القديمة. ولم تشع بين هؤلاء البدو

من العذريين الحضارة ولا دخل في ديارهم الترف، فلم تفسد نفوسهم ولا تحول غزلهم الى فن من فنون الترف، بل بقيت له بداوته وسذاجته وبساطته، وأخذوا يعبرون به عن دخائل نفوسهم إزاء المرأة وقد حاطها الإسلام بهالة من التجلّة، فإذا هم ترق أحاسيسهم وتنبل عواطفهم ومشاعرهم، وإذا هذا الغزل العفيف الظامئ يصدر عن فطرتهم وسليقتهم صدورا طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة.

ولم ترو لنا كتب الأدب هذا الغزل وحده، وإنما قدمته في قصص غرامى يصور إلى حد بعيد تجارب كل عاشق من هؤلاء العشاق وما بعثه في كل تجربة على نظم مقطوعاته الغزلية أو الوجدانية، وأنت لا تقرأ هذا القصص حتى تجد فيه المزاوجة الدقيقة بينه وبين الأشعار التى رويت فيه، فقد حافظ القصاص على سياق هذا القصص، ولم يفرطوا في وضع المناسبات الدقيقة لما ساقوا من أشعار.

والذى لا ريب فيه أن لغة هذا القصص كلغة ما روى فيه من أشعار، لغة فيها جزالة وفيها هذا الصفاء الذى نجده في شعر العذريين، أو قل هذا الجمال اللفظي الذى يمتاز به الغزل العذرى. ولم يعقد الرواة في هذا القصص، بل تركوه في حال ساذجة، كسذاجة هؤلاء البدو الذين روى عنهم، فهو قصص بسيط، ليس فيه تكلف ولا ما يتصل بالتكلف، قصص بدوى إن صح هذا التعبير، ليس فيه بُعد ولا إغراق في التخيل، ومن هنا يأتي جماله، لأنه يصور حياة فطرية سليمة.

ويظهر أن القصاص لم يدركوا سبب هذا الغزل المحروم وأن مثالية الإسلام الخلقية هي التى دفعت إليه، فوضعوا من عند أنفسهم سببا ظنوا أنهم به يستطيعون أن يوجدوا العقدة النفسية التى أحدثت هذا الحرمان، وهو سبب سيراه القارئ منتشرا في كثير من هذا القصص الذى رويناه، وذلك أنهم يروون أن العرب في هذا العصر الإسلامي الذى ظهر فيه ذلك الغزل العذرى الملتاع

الظامئ أبدا كانوا يكرهون أن يزوجوا فتياتهم من عشاقهم الذين ينظمون فيهن أشعارهم، فيفضحونهن ويفضحون آباءهن وعشائرهن، وهى فضيحة كبرى لم يكن بد من أن يعاقب عليها العاشق، فيحرم من معشوقته جزاء وفاقا لجريمته فى حقها وحق أهلها. ولا يعرف التاريخ الصحيح هذه العادة للعرب، وهى ليست من سنن الإسلام ولا مما فرضه على الناس، وهو لا يحرم الحب الطاهر الشريف، إنما يحرم الحب الآثم الخسيس.

وزاد الرواة أن السلطان كان يهدر دم هؤلاء الغزليين، وليس بمعقول أن الخلفاء الأمويين كانوا يهدرون دماءهم ويستبيحونها، بغير نص من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى، وما حرم الإسلام شيئا كتحريم القتل، بل لقد حرمه حتى فى الأخذ بالثأر، فكيف يحله الخلفاء والحكام فى العشق العفيف والحب الطاهر الشريف، ولقد كانوا هم أنفسهم يروون غزل هؤلاء المحبين ويعجبون به وبما فيه من وجد وهيام، وكان أمامهم شعراء مكة والمدينة من أمثال عمر بن أبى ربيعة، ممن كانوا يصرحون فى حبهم ولا يوارون ولا يستخذون ولا يخجلون، ولم يحدث أن طلبوا عقابهم فضلا عن قتل النفس المحرمة بغير حق. إنما هو خيال القصاص الذين صاغوا هذه الأخبار، ولم يفكروا فى أنهم يكتبون حقائق، إنما فكروا فى أنهم يكتبون قصصا للتسلية والمتعة الأدبية، وقد رأوا فى إهدار دم العاشق البدوى وتحريم المعشوقة التى تغزل بها عليه ما يحبك قصصهم الغرامى ويسند سياقه، فعمدوا إلى رواية ذلك بقصد الحبكة القصصية. ويمكن أن ندخل فى هذه الغاية الفنية الخالصة ما تخيلوه من توحش مجنون ليلى حتى ألف الظباء، وعايشته، وما أكثروا من غشيان الإغماء للعشاق وكيف أنه قد يودى بحياتهم. فكل ذلك إنما هو خيوط خيالية أضيفت إلى النسيج الواقعى لهذه القصص الغرامية، وهى خيوط ساعدت على إحكام هذا القصص وجعلته عملا فنيا بديعا.

مَجْنـون لَيْلـى

المجنون وصاحبته ليلى

كان قيس بن المُلوَّح جميل الوجه أبيض اللون، وكانت ليلى ابنة عمه المهدى من أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملحهن شكلا. وقد نشآ معا يلعبان فى حى من أحياء بنى عامر بنجد، ويتبادلان صداقة الطفولة العذبة حتى إذا شبا قليلا تبعا – على عادة أمثالهما – أغنام أبويهما، يرعيانها، وكل منهما يألف صاحبه ويشعر بالسرور فى رفقته، ولم يكونا يعلمان ما يخبئه لهما القدر وأنه جادٌّ من ورائهما فى نسج قصة رائعة من قصص الحب العذرى الطاهر. وكم من أطفال نشئوا معا، وكم من أطفال تقابلوا وتحادثوا ولم يأبه بهم الناس، لأن لقاءهم وحديثهم ذهبا مع الريح، أما لقاء المجنون بليلى وأحاديثه معها فقد خلدا على التاريخ، إذ تطور هذا اللقاء وتلك الأحاديث إلى نبع لا ينضب من ينابيع الحب الشريف. لقد كانا يرعيان الأغنام وأولادها الصغار التى يسميها العرب البَهْـم، وهما لاهيان عن الدنيا وعن أمرهما، لا يعرفان ما الحب ولا ما أماراته. وكبرت ليلى، وأصبحت عروسا تخطب، فمنعها أبوها من الرعى على عادة لداتها حين يكبرن، وظلت صورتها فى الرعى لا تبرح ذاكرة قيس، فقد كان يرى فيها أجمل ذكرياته معها، وفى ذلك يقول:

تعلقت ليلى وَهْى ذاتُ ذؤابةٍ ... ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيها حَجْمُ
صغيرين نرعى البَهْمَ ياليت أننا ... إلى اليومِ لم نكْبرْ ولم تكْبرْ البَهْمُ

اندلاع نيران الحب

انقطعت ليلى عن لقاء قيس بن الملوح، فأحس بفراغ كبير، بل سرعان ما أحس أن المودة التى كانا يتبادلانها تركت آثارا عميقة فى نفسه، وذات مرة

كان يمر بالحي راكبا ناقة لـه، فرآها مـع نسوة، ودعونـه إلى الـنزول والحديث معهن، فنزل، وكان محدثا لبقا، وجعل يحادثهن، وعينـه لا تفارق ليلى، وجاءته لتمسك معه بـاللحم، وهـو يقطعه، فقطع كفه بالسكين وهـو شاخص فيها، فجذبت السكين من يده وهو لا يدري. وأوقد نارا للشواء، وطرح قطع اللحم فيها، وأقبل يحادثها، فقالت له : انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمدَّ يده إلى الجمر، وجعل يقلب بها اللحم، فاحترقت وهو لا يشعر. ولما عرفت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شدت يده بهُدْب ردائها. وذهب وقد استحكم عشقها في قلبه.

وكانت ليلى بعد هذا المجلس تستدعيه لزيارتها، فكان يأتيها ويتحادثان وكل منهما مقبل على صاحبه معجب به، ولا يزالان كذلك حتى يمسيا. وانصرف يوما إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقا إليها واجتهد أن يغمض، فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نهاري نهارُ الناس حتى إذا بدا ... لِيَ الليلُ شاقتني إليكِ المضاجعُ
أُقَضِّي نهاري بالحديث وبالمُنى ... ويجمعُني والهمَّ بالليلِ جامعُ
لقد ثَبَتَتْ في القلب منكِ محبَّةٌ ... كما ثَبَتَتْ في الراحتينِ الأصابعُ

وخرج ذات يوم يريد زيارتها، فلما قرب من منزلها لقيته جارية فتشاءم منها، فلما سار إليها حدثها بقصته وتشاؤمه من الجارية وأنه يخاف تغير عهدها وبكى، فقالت له: لا تخف، حاش لله من تغير عهدي، لا يكون والله ذلك أبدا إن شاء الله. فلم يزل عندها يحادثها بقية يومه. ووقع له في قلبها مثل ما وقع لها في قلبه. فجاءها يوما كما كان يجيء، وأقبل يحدثها، فأعرضت عنه، وأقبلت على فتى يسمى منازلاً بحديثها، تريد بذلك محنته وأن تعلم ما في قلبه، فلما رأى ذلك جزع جزعا شديدا حتى بان في وجهه وعُرف فيه، فلما خافت عليه أقبلت كالمُسِرَّة إليه، فقالت:

كلانا مظهرٌ للناس بُغْضاً وكلٌ عند صاحبه مَكينُ
تُبلّغنا العيونُ مقالتَيْنا وفي القلبين ثَمَّ هوًى دَفينُ
وأسرارُ المَلاحظِ ليس تَخْفَى إذا نطقتْ بما تُخْفِي العيونُ

فسُرِّى عنه وانكشف همه وعلم ما في قلبها، فقالت له: إنما أردت أن أمتحنك والذى لك عندى أكثر من الذى لى عندك، وأعطى الله عهدا إن جالست بعد يومى هذا رجلا سواك، حتى أذوق الموت إلا أن أُكْرَه على ذلك، فانصرف عنها قرير العين، وهو يقول:

أظُنُّ هواها تارِكى بمَضَلّةٍ من الأرض لا مالٌ لدىّ ولا أَهْلُ
ولا أحدٌ أُفْضى إليه وصيّتى ولا صاحبٌ إلا المطيّةُ والرَّحْلُ
محا حُبُّها حُبَّ الأُلى كُنَّ قبلها وحَلّت مكانا لم يكن حُلَّ مِن قَبْلُ

استغراق المجنون فى الحب

وسُئل قيس قبل اختلاط عقله عن أعجب شئ أصابه فى وجده بليلى، فقال: طَرَقنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أُدْمٌ (غموس) فبعثنى أبى إلى منزل عمى أبى ليلى وقال: أطلب لنا منه أُدْما، فأتيته، فوقفت على خِبائه، فصحت به، فقال: ما تشاء؟ فقلت: طرقنا أضياف ولا أُدْم عندنا لهم، فأرسلنى أبى نطلب منك أُدْما، فقال: يا ليلى أخرجى إليه ذلك النِّحْىَ (زق السمن) فاملئى له إناءه من السمن، فأخرجته ومعى قدح، فجعلت تصب السمن فيه ونتحدث، فألهانا الحديث وهى تصبُّ السمن، وقد امتلأ القدح ولا نعلم جميعا وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا فى السمن.

وأتيتهم ليلة ثانية أطلب نارا وأنا متلفّع ببُرْدٍ (ثوب) لى، فأخرجت لى نارًا فى خرقة، فأعطتنيها، ووقفنا نتحدث، فلما احترقت الخرقة قطعت من بردى خرقة

وجعلت النار فيها، وكلما احترقت خرقة قطعت أخرى ووضعت بها النار، حتى لم يبق عليَّ من البرد إلا ما وارى (ستر) عورتى وما أعقل ما أصنع.

احتجاب ليلى

كان قيس أول ما علق ليلى كثير الزيارة لها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فلما علم أهلها بعشقه لها منعوه من إتيانها وتقدموا إليه أن لا يعود إلى التحدث إليها، فطار عقله، وكان أهله يعزونه عنها ويقولون له: نزوجك أنفس جارية فى عشيرتك، فيأبى إلا ليلى ويهذى بها ويذكرها، فيلومونه ويعذلونه على ما يصنع بنفسه وأكثروا عليه فى الملامة والعذل يوما فقال وقد غلب عليه البكاء:

فواكبدَا من حُبِّ من لا يُحِبُّنى ... ومِن زَفَراتٍ ما لهُنّ فَناءُ
أتارِكَتى للموت أنتِ فميّتٌ ... وما للنفوس الخائفاتِ بقاءُ

وذكروا: أن نسوة من عشيرته جلسن إليه، فقلن له: ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك كل ما نرى فى هوى ليلى، وإنما هى امرأة من النساء؟ وهل لك فى أن تصرف هواك إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع إليك ما غاب من عقلك وجسمك؟ فقال لهن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت فى الناس مستريحا، فقلن له: فما الذى أعجبك منها؟ قال: كل شئ رأيته وسمعته وشاهدته منها أعجبنى. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان فى عينى حسنا، ولقد جهدت أن يقبح عندى منها شئ أو يسمج أو يعاب لأسلو عنها، فلم أجده، فقلن له: فصفها لنا، فأنشأ يقول:

بيضاءُ خالصةُ البياض كأنها ... قمرٌ توسّط جُنْحَ ليلٍ مُبْرَدِ
مَوْسُومةٌ بالحسن ذاتُ حواسدٍ ... إن الجمالَ مَظِنّةٌ للحُسَّدِ

ليلى لا تفى لقيس بوعدها

وذكروا: أن ليلى وعدته أن يزورها ليلة إذا وجدت فرصة لذلك، فمكث مدة يراسلها في الوفاء وهي تعده وتسوّفه حتى كان يوم خرج فيه الرجال عن الحيّ، فجلس إلى نسوة من أهلها في ناحية منها بحيث تسمع كلامه، فحادثهن طويلا، ثم قال: ألا أنشدكن أبياتا صنعتها في هذه الأيام؟ قلن: بلى، فأنشدهن:

يا للرِّجال لهمٍّ باتَ يَعْروني ... مُستَطْرفٍ وقديمٍ كاد يُبْليني
مَنْ عاذِرى من غريمٍ غيرِ ذى عُسُرٍ ... يَأبَى فيمطُلُنى دَيْنى ويَلْوِينى
وما كَشُكرىَ شكرٌ لو يوافقنى ... ولا مُناىَ سواه لو يُواتينى
أطعتُه وعَصَيتُ الناس كلَّهمُ ... في أمره وهواه وهْوَ يَعْصِينى

فقلن له: ما أنصفك هذا الغريم الذى ذكرته، وجعلن يتضاحكن من قوله وهو يبكي، فاستحتْ ليلى منهنّ ورقّت له حتى بكت، وقامت ودخلت بيتها، وانصرف.

رسول بينه وبين ليلى

قال رجل من عشيرة قيس له وقد تدله في حبها: إنى ملمٌّ بمنزل ليلى فهل تودعني إليها شيئا؟ فقال: نعم، قف بحيث تسمعك ثم قل:

اللهُ يعلمُ أن النفسَ هالكةٌ ... باليأسِ منكِ ولكنى أُعزِّيها
منّيْتُكِ النفسَ حتى قد أضرَّ بها ... واستيقَنَتْ خُلُفًا مما أمنّيها
وساعةٌ منكِ ألهوها وإنْ قَصُرَتْ ... أَشْهَى إلىَّ من الدنيا وما فيها

فمضى الرجل ولم يزل يرقب خلوة من ليلى حتى وجدها، فوقف عليها، ثم قال لها: يا ليلى لقد أحسن الذى يقول:

الله يعلم أنَّ النفس هالكة ... باليأس منك ولكنى أمنّيها

وأنشد الأبيات، فبكت بكاء طويلا ثم قالت: أبلغه السلام وقل له:

نفسي فداؤكَ لو نفسي ملكتُ إذن　　ما كان غيرُك يَجْزِيها ويُرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيكَ على　　مرارةٍ في اصطباري عنكَ أُخفيها

وأبلغ الفتى قيسا البيتين وأخبره بحالها، فبكى حتى سقط على وجهه مغشيًا عليه، ثم أفاق وهو يقول:

عَجِبتُ لعُرْوَةَ العُذْرِيِّ أضحى　　أحاديثاً لقومٍ بعد قومِ
وعُرْوَةُ مات موتا مُسْتَرِيحًا　　وها أنا مَيِّتٌ في كل يومِ

ألسنة السوء

اجتاز قيس بن ذَريح بقيس بن الملوح وهو جالس وحده في نادى قومه، وكان كل واحد منهما مشتاقا إلى لقاء الآخر، وكان قيس بن الملوح (المجنون) لا يحدث أحدا ولا يرد على متكلم جوابا، فسلم عليه قيس بن ذريح، فلم يرد عليه السلام، فقال له: يا أخي أنا قيس بن ذريح، فوثب إليه، فعانقه، وقال له: مرحبا بك يا أخي، أنا والله مسلوب العقل، فلا تلمني، فتحدثا ساعة وتشاكيا وبكيا، ثم قال له قيس بن الملوح: يا أخي إن منزل ليلى منا قريب، فهل لك أن تمضى إليها فتبلغها عنى السلام؟ فقال له: أفعل. فمضى قيس بن ذريح حتى أتى ليلى فسلم وانتسب فقالت له: حَيَّاك الله، ألك حاجة؟ قال: نعم ابنُ عمك أرسلني إليك بالسلام، فأطرقت ثم قالت: ماكنتَ أهلا للتحية لو علمت أنك رسوله، قل له عني: أرأيت قولك:

أبِتْ ليلةً بالغَيْلِ يا أمَّ مالكٍ　　لكم غير حبٍّ صادق ليس يكذب

لقد فضحني بذكره ليلة الغيل (اسم واد) وأى ليلة هذه؟ وهل خلوت معه في الغيل ليلا أو نهارا؟ فقال لها ابن ذريح: يا ابنة عم إن الناس تأوّلوا كلامه على

غير ما أراد فلا تكوني مثلهم، إنما أخبر أنه رآك ليلة الغيـل لا أنـه عناك بسـوء. فأطرقت طويلا ودموعها تجرى وهي تكفكفها، ثم انتحبت، ثم قالت: اقرأ على ابن عمي السلام وقل له: بنفسي أنت، والله إن وجدى بك فوق ما تجـد ولكـن لا حيلة لى فيك.

شـفـقة الأم

لما عشق قيس بن الملوح ليلى وهام بها ترك الطعام والشراب، فأشفقت عليه أمه ومضت إلى ليلي، فقالت لها، إن قيسا قد ذهـب حبـك بعقلـه وترك المطعم والمشرب فلو جئته وقتا لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله فقالت ليلى: أما نهارا فلا، لأني لا آمن قومي على نفسي، ولكن ليلا، فأتته ليلا، فقالت له: يا قيس إن أمك تزعم أنك جُننت من أجلي وتركت المطعم والمشرب، فاتق الله وأبق على نفسك فبكى وقال:

قالتْ جُنِنْتَ على رأسي فقلت لها   الحبُّ أعظمُ ممَّــا بالمجانينِ
الحبُ ليس يفيق الدهرَ صاحبُه   وإنما يُصْرَعُ المجنون في الحينِ

فبكت معه، وتحدثا حتى كاد الصبح يُسْفر، ثـم ودعتـه وانصرفـت، فكـان آخـر عهده بها.

المهدى يرفض قيسا ويهدر الحاكم دمه

كان قيس عند أبيه الملوح أعظم منزلة من إخوته وكان أبوه ذا ثروة، فدفـع له خمسين بعيرا وراعيها في مهر ليلى فلم يقبل أبوهـا المهـدى مـع أنـه كـان أقـل منهم ودونهم ثراء، لسنّة ذاعت عند العرب، وهى أنهم كـانوا يكرهـون تزويـج اثنين انتشرت الأخبار بمحبتهما.

ولم يكتف المهدى برفضه، فقد أبلغ أمره وعشقه إلى الحاكم، فأهدر دمه إن أتاهم، وتوعده بالقتل إن ألَمّ بدارها، فقال:

ألا حُجبتْ ليلى وآلى أميرها عليَّ يميناً جاهداً لا أزورُها
على غير ذنبٍ غير أنّي أحبُّها وأنَّ فؤادى رهنُها وأسيرُها

ولما عرف أبوها أن هذا التهديد لا يصرفه عن غشيان داره وأنه لا يزال يطلب فرصة ارتحل بليلى وأبعد، وجاء قيس عشية فأشرف على الدار، فلم يجدها، فقصد مكانها، وألصق صدره به وجعل يمرغ خديه على ترابه وهو يبكى ويقول:

يا صاحبيَّ ألمّا بى بمنزلةٍ قد مرَّ حينٌ عليها أيُّما حينِ
إنى أرى رجَعات الحب تَقْتُلنى وكان فى بدئها ما كان يَكْفينى
ألْقَى من اليأس تاراتٍ فَتَقْتُلُنى وللرجاء بشاشاتٌ فتُحيينى

جنون قيس بليلى

لما بعد المهدى بابنته ليلى عن قيس ومنازل قومه جُنَّ بها جنونا، فكان لا يعاوده عقله إلا قليلاً، ولم تزل تلك حاله غير مستوحش، إنما يكون فى جنبات الحيِّ عاريا منفردا لا يلبس ثوبا إلا خرقةً، وهو يهذى ويخطط فى الأرض ويلعب بالتراب والحجارة، ويجمع العظام حوله، ولا يجيب أحدا سأله عن شئ، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوب إليه عقله ذكروا ليلى، فيقول: بأبى هى وأمى، ويرجع إليه عقله ويخاطبهم فيجيبونه.

ولما طال على قيس ذلك قال قوم لأبيه: لعل الجن قد أصابته، فكان يأتيه بالتمائم والتعاويذ ويرش عليه الماء، لاعتقاد العرب أن الجن تنفر من ذلك، فكان يأبى هذا الصنيع إباء شديدا وينشد:

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرُّقى وصبُّوا عليه الماء من ألم النَّكسِ
وقالوا به من أعين الجنِّ نَظْرةٌ ولو عقلوا قالوا به أعين الإنسِ

توسط نوفل بن مساحق

كان نوفل بن مساحق يتولى جمع الزكاة من بنى عامر لوالى الحجاز من قبل بنى أمية، فسمع بشأن قيس، فرقَّ له، وذات يوم كان يمر بمنازل قومه، فرآه وهو يلعب بالتراب وقد تعرّى جسده، فقال لغلام معه: يا غلام هات ثوبا، فأتاه به، فقال لبعض من معه: خذ هذا الثوب، فألقه على ذلك الرجل، فقال له: أتعرفه؟ جعلت فداك، قال: لا، قال: هذا ابن سيد الحيّ، والله ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن، وإذا طُرح عليه ثوب خرّقه، ولو أنه كان يلبس ثوبا لكان فى مال أبيه ما يكفيه. وحدثه عن أمره، فدعا به نوفل وكلمه، فجعل لا يعقل شيئا يكلمه به، فقال له قومه: إن أردت أن يجيبك جوابا صحيحا، فاذكر له ليلى، فذكرها له، وسأله عن حبه إياها، فأقبل عليه يحدثه بحديثها ويشكو إليه وجده بها وينشده شعره فيها، فقال له نوفل: هل انتهى بك الحب إلى ما أرى؟ قال: نعم وسينتهى بى إلى أشد مما ترى. فعجب منه وقال له: أتحب أن أزوجك إياها؟ قال: نعم وهل إلى ذلك من سبيل؟ قال نوفل: انطلق معى حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها إليك وأرغبهم فى المهر لها. قال قيس له: أتراك فاعلا؟ قال: نعم، قال قيس: سأنظر ما تقول! قال نوفل: لك علىّ أن افعل ذلك. ودعا له بثياب، فألبسه إياها، وراح معه المجنون كأصحِّ أصحابه يحدثه وينشده. فبلغ ذلك عشيرتها، فلقوه فقالوا: يا نوفل لا والله لا يدخل المجنون منازلنا أبدا أو نموت وقد أهدر لنا السلطان دمه، فأقبل بهم وأدبر، فأبوا. فلما رأى ذلك قال للمجنون: انصرف. فقال له المجنون: والله ما وفيت بالعهد، فقال له: انصرافك بعد أن أيأسنى القوم من إجابتك أصلح من سفك الدماء، فقال قيس:

إذا ذُكِرتْ ليلى عَقَلتُ وراجَعتْ عَوازِبُ عقلي من هَوًى مُتشعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جِنَّةٍ ولا هُمُ إلا افتِراءُ التكذُّبِ
وشاهدُ وجدى دمعُ عيني وحبُّها بَرَى اللحمَ عن أحناء عظمي ومنكبي
وأصبحت من ليلى الغداة كناظرٍ مع الصبح في أعقاب نَجْمٍ مُغرِّبِ

ليلى لا تنسى قيسا

خرج رجل إلى أرض نجد في طلب بغية له، فإذا هو بخيمة قد رفعت، وكان قد أصابه المطر فعدل إليها، وتنحنح، فإذا امرأة قد كلمته، وقالت له: انزل، فنزل، فقالت: سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقال: من ناحية تهامة ونجد، فقالت: أدخل أيها الرجل، فدخل إلى ناحية الخيمة، فأرخت بينها وبينه سترا، ثم قالت له: أى بلاد نجد وطئت، فقال كلها وطئت، فقالت له: فيمن نزلتَ هناك؟ فقال: ببني عامر، فتنفست الصُّعداء ثم قالت فبأى بنى عامر نزلت؟ فقال: ببنى الحريش (وهم قوم قيس). فاستعبرت، ثم قالت: هل سمعتَ بذكر فتى منهم يقال له: قيس بن الملوَّح ويلقب بالمجنون، فقال: بلى وا لله وعلى أبيه نزلت، وأتيته، فنظرت إليه يهيم في تلك الفيافي ويكون مع الوحش ولا يعقل ولا يفهم إلا أن تذكر له فتاة يقال لها ليلى، فيبكي وينشد أشعارا فيها. ولما سمعت ذلك من الرجل رفعت الستر بينها وبينه والتفت الرجل فإذا فِلقَةُ قمر لم تر عينه مثلها، فبكت حتى ظن أن قلبها قد انصدع، فقال لها: اتق الله أيتها المرأة فما قلت بأسا. فمكثت طويلا على تلك الحال من البكاء والنحيب، ثم قالت:

ألا ليتَ شِعرى والخُطوبُ كثيرةٌ متى رَحْلُ قيسٍ مُستقِلٌّ فراجعُ
بنفسيَ مَنْ لا يستقلُّ بنفسه ومَنْ هو إن لم يَحفَظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتى سقطت مغشيا عليها، فقال لها: من أنت يا أمة الله؟ وما قصتك؟ قالت: أنا ليلى صاحبته المشئومة والله عليه غير المواسية له.

لقاء مفاجئ

مر المجنون في توحشه بحيّ ليلى، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته فصعق وخرّ مغشيا عليه، فأقبل فتيان من عشيرة ليلى فأخذوه ومسحوا التراب عنه وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا ليلى أن تقف له وقفة، فرقت لما رأته به، وقالت له: أعذر عليّ بما أنت فيه، ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي منه، فأفاق وجلس، وقال: هيهات إن دائي ودوائي أنت وإن حياتي ووفاتي لفي يديك، ولقد وكّلت بي شقاء لازما وبلاء طويلا، ثم بكى وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤُها قريبٌ ولكن في تَناوُلها بُعْدُ
لقد عارضتْنا الريحُ منها بنفحةٍ على كَبِدِي من طيبِ أرواحها بَرْدُ
ومازلتُ مَغْشيًّا عليَّ وقد مَضتْ أناةٌ وما عندى جوابٌ ولا رَدُّ
عِدِيني– بنفسى أنتِ –وعداً فربما جَلا كُربةَ المكروبِ عن قلبه الوعدُ

زواج ليلى

وتسامع العرب بليلى وعشق قيس بن الملوح لها وجنونه بها، فخطبها كثيرون، فلم يرضهم أهلها، وخطبها شاب موسر من ثقيف (الطائف) فزوجوه بها، وأخفوا ذلك عن المجنون، ثم نمى إليه طرف منه فقال:

دعوت إلهي دعوةً ما جهلتُها وربِّي بما تُخفي الصدورُ بصيرُ
فقد شاعت الأخبارُ أنْ قد تَزوَّجتْ فهل يأتِيَنِّي بالطلاق بشيرُ

وبلغه أن أهلها يريدون نقلها إلى الثقفي فقال:

كأن القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغْدَى بلَيْلَى العامريِّة أو يُرَاحُ
قطاةٌ غَرَّها شَرَكٌ فباتتْ تجاذِبُه وقد عَلِقَ الجَناحُ

وكان ينشد وهو يبكي ويتفجع:

أمزمعةٌ للبين ليلى ولم تمت كأنك عما قد أظلّك غافلُ
ستعلم إن شطّتْ بهم غُربَةُ النّوَى وزالوا بليلى أن لُبّك زائلُ

ولما أرادوا الرحيل بها أخذه أبوه، ووقف به مستترا، حتى ينظر إليها وهي راحلة مع زوجها وقومها، لعل ذلك يشفي شيئا من غليله، فلما رآهم يرتحلون بكى أحرَّ بكاء ونشج أحرَّ نشيج، وأنشد في صوت متقطع:

ألا أيها القلبُ الذى لجَّ هائماً بليلى وليداً لم تُقطَّع تمائِمُه
أفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أنَى لما بك أن تلقى طبيبا تُلائمُه
فما لَكَ مسلوبَ العَزاء كأنما ترى نَأْيَ ليلى مَغْرَماً أنت غارِمُه

فقال له أبوه: ويحك! إنما جئت بك متخفيا ليتروّح بعض ما بك بالنظر إليهم، فإذا فعلت ما أرى عُرفت، وقد أهدر السلطان دمك إن مررت بهم، فأمسك أو فانصرف، فقال: ما لى سبيل إلى النظر إليهم يرتحلون وأنا ساكن غير جازع ولا باك، فانصرف بنا، ومضى وهو يقول:

ذرِ الدمع حتى يظعن الحيُّ إنما دموعك، إن فاضتْ، عليك دليلُ

رفاق قيس يحاولون التسرية عنه

اجتمع إلى قيس بعد زواج ليلى ورحيلها بعض رفاقه ممن كان يألفهم ويأنس إليهم قبل توله بها، فعزموا عليه أن يخرج معهم متنزهين في أحياء العرب للترويح عن نفسه. ولبى رغبتهم، فسار معهم تعاوده الصحة دورا والجنون دورا، ومروا في طريقهم بجبلي نَعْمان فقال له بعضهم: هذا جبلا نعمان وكانت ليلى تنزل بهما، فقال: فأى الرياح يأتى من ناحيتهما؟ فقالوا: الصَّبا، قال: فوالله لا أريم (أترك) هذا الموضع حتى تهب الصبا، فأقاموا معه ثلاثة أيام حتى هبت، فانطلق معهم، وأنشأ يقول:

أيا جبلي نعمان بالله خَلِّيا سبيلَ الصَّبا يخلصْ إليَّ نسيمُها
أجِدْ بَرْدَها أو تَشْفِ مني حرارة على كبدٍ لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريحٌ إذا ما تنسَّمتْ على نفس محزونٍ تجلَّت همومها

وبينما كانوا يسيرون أمطرتهم السماء مطرا شديدا أعقبته سيول كثيرة، جعلت عبراته تسيل، وأنشد بصوت حزين لم ينسه رفاقه ولا نسوا حرقته أبدا:

جرى السَّيلُ فاستبكانيَ السيلُ إذ جرى وفاضَتْ له من مُقْلَتيَّ غروبُ
وما ذاكَ إلا حينَ أيقنتُ أنه يكون بوادٍ أنتِ فيه قريبُ
يكون أُجَاجاً دونكم فإذا انتهى إليكم تَلقَّى طيبَكم فيطيبُ
أظَلُّ غريبَ الدار في أرض عامرٍ ألا كلُّ مهجورٍ هناك غَريبُ
وإن الكئيبَ الفردَ من أيمن الحِمَى إليَّ وإن لم آته لحبيبُ
ولا خير في الدنيا إذا أنتَ لم تَزُرْ حبيبا ولم يَطرَبْ إليكَ حبيبُ

وغفلوا عنه ليلة، ثم افتقدوه فلم يجدوه، فركب ابن عم له في طلبه، فرآه عند مشرعة ماء وهو يتحدث إلى رجلين قد صادا ظبية، وربطاها بحبل، وعيناه تدمعان، يقول لهما: خَلاَّها وخذا مكانها بعيرى، وهو ينشد:

يا صاحبيَّ اللذين اليوم قد أخذا في الحبل شِبْهًا لليلى ثم غَلاَّها
إني أرى اليوم في أعطاف شاتكما مشابها أشبهتْ ليلى فحُلاَّها

فحلَّ الرجلان وثاقها فولت تعدو هاربة مذعورة، فقال:

أيا شِبهَ ليلى لا تُخافي فإنني لكِ اليومَ من وحشيَّةٍ لَصَديقُ
ويا شبه ليلى لو تَلبَّثتِ ساعةً لعل فؤادى مِنْ جَواه يُفِيقُ
تَفِرُّ وقد أطلقتُها من وَثاقِها فأنتِ لليلى لو عَلِمْتِ طَلِيقُ

وحاول ابن عمه أن يعود به إلى رفاقه فأبى إلا الرجوع إلى منازل قومه، فرافقه، وهو في طول طريقه يئن ويتفجع وينشد:

تذكّرتُ ليلى والسِّنينَ الخواليا ... وأيامَ لا أَعْدِى على الدهرِ عاديا
خليليَّ لا واللهِ لا أملكُ الذى ... قضى اللهُ فى ليلى ولا ما قَضَى لِيا
قضاها لغيرى وابتلانى بحُبِّها ... فهلاَّ بشيءٍ غير ليلَى ابتلانيا
قضى الله بالمعروف منها لغيرها ... وبالشوق منى والغرام قضى ليا
وما أُشرف الأيفاعَ إلا صبابةً ... ولا أنشد الأشعارَ إلا تداويا
أَعُدُّ الليالى ليلةً بعد ليلةٍ ... وقد عشتُ دهراً لا أَعُدُّ اللياليا
أُحِبُّ من الأسماء ما وافق اسمَها ... وأشبهَهُ أو كان منه مُدانيا
وإنى لأستغشى وما بيَ نعسة ... لعل خيالا منكِ يلقى خياليا
هى السحرُ إلا أنَّ للسحر رُقْيَةً ... وإنِّىَ لا أُلْفِى لها الدهرَ راقِيا

تردده على جبل التوباد

كان قيس وليلى، وهما صبيان، يرعيان أغنام أبويهما عند جبل التوباد، وهو جبل فى ديارهما، فلما ذهب عقله وتوحش كان يجئ إلى ذلك الجبل فيقيم فيه، فإذا تذكر الزمن الذى كان يطيف به هو وليلى جزع واستوحش وهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشام، فإذا ثاب إليه عقله رأى ديارا ومواضع لا يعرفها، فيقول للناس الذين يلقاهم: بأبى أنتم أين التوباد من أرض بنى عامر؟ فيقولون له: وأين أنت من أرض بنى عامر؟ أنت بالشام، عليك بنجم كذا فى السماء، فسر على جهته حتى تصل إلى ديار قومك. فيمضى على وجهه متبعا ذلك النجم، حتى يقع بأرض اليمن، فيرى ديارا ينكرها وقوما لا يعرفهم، فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون له: وأين أنت من أرض بنى عامر؟ عليك بنجم كذا وكذا. ولا يزال على ذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه بكى وقال:

وأجْهَشْتُ للتّوبَادِ حين رأيتهُ ... وكبّر للرحمن حينَ رآنى
وأذْرَيْتُ دمعَ العين لمّا عرفته ... ونادى بأعلى صوتِه فدعانى

فقلتُ له: قد كان حولكَ جيرةٌ وعهدِى بذاكَ الحىِّ منذ زمانِ
فقال: مَضَوْا واستودعُونى حديثَهم ومن ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكى اليومَ من حَذَرى غداً فِراقَكَ والحيَّانِ مؤتلفانِ
سِجالاً وتَهْتَانا ووَبْلاً وديمةً وسَحًّا وتَسْكاباً إلى هَمَلانِ

رجل يذم له ليلى

سأل الملوح أبو المجنون رجلا قدم من الطائف أن يمر بالمجنون فيجلس إليه ويخبره أنه لقي ليلي وجلس إليها ووصف له صفات منها ومن كلامها يعرفها المجنون، وقال له حدثه بها، فإذا رأيته اشرابَّ لحديثك واشتهاه فعرِّفْه أنك ذكرته لها ووصفت ما به فشتمته وسبَّته وقالت إنه يكذب عليها ويشهِّر بها بفعله، وإنها ما اجتمعت معه قط كما يصف. ففعل الرجل ذلك، وجاء إليه فأخبره بلقائه لها، فاقبل عليه وجعل يسأله عنها، فيخبره بما أمره به الملوّح فيزداد نشاطا ويثوب إلى عقله، إلى أن أخبره بسبِّها إياه وشتمها له، فقال وهو غير مكترث لما حكاه عنها:

تمرُّ الصَّبا صَفْحاً بساكن ذى الحِمَى ويصدع قلبى أن يهبَّ هبوبُها
قريبة عهدٍ بالحبيب وإنما هوى كل نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها
حلالٌ لليلى شَتْمنا وانتقاصنا هنيئا ومغفورٌ لليلى ذنوبُها

حجه مع أبيه إلى الكعبة

ولما سلب المجنون عقله وطال عليه جنونه قال الحىّ لأبيه: احجج به إلى مكة وادعِ الله عز وجل له، ومره يتعلق بأستار الكعبة، فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغِّضها إليه، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء. وبينما الملوح سائر مع ابنه فى بعض الأودية إذا حمام يتجاوب، فبكى المجنون وأنشد:

ألا يا حَمامَ الأَيْكِ ما لكَ باكيا أفارقتَ إلفاً أم جفاكَ حبيبُ
دعاكَ الهوى والشوقُ لما ترنّمتْ هَتُوفُ الضُّحَى بين الغصون طَرُوبُ
تُجاوِبُ وُرْقاً قد سمِعْنَ لصوتها فكلٌّ لكلٍّ مُسْعِدٌ ومُجِيبُ

وكان أبوه يرق له، فيقبل عليه في أثناء سيرهما يخاطبه ويسلّيه ويعظه، وهو ينظر إليه كأنه لا يفهم ما يقول فقد غمره ما هو فيه من الهوى والعشق. فلما طال خطابه إياه قال له: يا بني أما لكلامي جواب، فقال له: والله يا أبي ما علمت أنك كلمتني فاعذرني فإني كما ترى مذهوب بي، ثم أنشأ يقول:

وشغلتُ عن فهم الحديث سوى ما كان منكِ فإنه شُغْلِي
وأديم لَحْظَ محدّثي ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلي

ولما صار مع أبيه بمكة كان يصنع صنيعا يرحمه منه عدوه، إذ يقول أخْرِجوني إلى الجبال لعلي أتنسم صبا نجد، فيخرجونه، فيتوجه نحو نجد، ويتنفس تنفسا يظن معه أن كبده قد انصدعت. وكان لا يلقى نجديا حتى يسائله عن وديان نجد واد واد وموضع موضع، فيخبره وهو يبكي أحر بكاء وأوجعه للقلب، قائلا:

ألا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابها وأرواحها إن كان نجدٌ على العهد

ولما انتهى إلى منى سمع صائحا في الليل يصيح: يا ليلى، فصرخ صرخة ظنوا معها أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم أفاق حائل اللون ذاهلا، فأنشأ يقول:

عرضت على قلبي العزاء فقال لي من الآن فايْأس لا أغرُّك بالصبر
إذا بانَ مَنْ تهوى وأصبحَ نائيا فلا شيء أجدى من حلولك في القبر
وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْف من مِنًى فهيّج أشجان الفؤاد وما يدري
دعَا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائرا كان في صدري
دعا باسم ليلى ضلّل الله سعْيَه وليلى بأرضٍ عنه نازحةٍ قَفْرِ

ولما هبط من منى قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة وسل الله عز وجل أن يعافيك من حب ليلى، فتعلّق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدني بليلى حبا وبها كلفا ولا تنسني ذكرها أبدا، وقال في بعض دعائه:

دعا المحرمون الله يستغفرونه بمكة وهنا أن تمحّى ذنوبُها
وناديتُ أنْ يا ربُّ أوّل سُؤْلتي لنفسيَ ليلى ثم أنتَ حسيبُها
فإن أعْطَ ليلى في حياتيَ لا يتب إلى الله خلق توبةً لا أتوبُها
وكم قائل قد قال تُبْ فعصيته وتلك لعمري توبةٌ لا أتوبها
فيا نفسُ صبرا لست والله فاعلمي بأوّل نفسٍ غابَ عنها حبيبُها

وهام من حينئذ واختلط عقله، فكان ينطلق في الصحراء مع الوحش، لا يأكل إلا ما ينبت في الصحراء من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها. وطال شعْر جسده ورأسه وألفته الوحوش فكانت لا تنفر منه.

مع نوفل بن مساحق ثانية

لم يزل نوفل بن مساحق من يوم ذهابه مع قيس إلى أهل ليلى يخطبها له منهم متطلبا لأخباره جامعا لأشعاره ويقال إنه سأل عنه في سنة من السنين، فقال له أهله: توحش وما لنا به عهد ولا ندرى إلى أين صار فخرج من عندهم وأوغل في البادية يتصيد الوحش، ومعه جماعة من أصحابه، حتى إذا كان ببعض النواحي إذا هو بأراكة (شجرة كبيرة) عظيمة وقد بدا منها قطيع ظباء وفيها شخص إنسان يُرَى من خلل تلك الأراكة، فعجب أصحابه من ذلك، وعرفه نوفل. فنزل عن دابته وتخفف من ثيابه وخرج يمشي رويدا، حتى أتى الأراكة، فارتقى حتى صار في أعلاها، وأشرف عليه وعلى الظباء، فإذا به قد تدلّى الشعر على وجهه. فلم يكد يعرفه إلا بعد تأمل شديد، وهو يرتعي من ثمر تلك الأراكة، فرفع رأسه، فتمثل نوفل ببيت من شعره:

أتبكي على ليلى ونفسُك باعدتْ مزارك من ليلى وشِعباكما معا

فنفرت الظباء واندفع في باقي القصيدة ينشدها، في أحسن نغمة وأجمل صوت، وهو يقول:

وما حَسَنٌ أن تأتيَ الأمر طائعا وتَجْزَعَ أنْ داعي الصبابةِ أسمعا
وأذكرُ أيامَ الحِمَى ثم أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تَصدَّعا
وليست عشيّاتُ الحِمَى برواجعٍ عليكَ ولكن خَلِّ عينيكَ تَدْمَعا

واسترسل في إنشاد القصيدة، ثم سقط مغشيا عليه، فتمثل نوفل ببعض شعره، فرفع رأسه إليه، وقال له: من أنت حَيَّـاك الله؟ فقال: أنا نوفل بن مساحق، فحياه، ثم سنحت له الظباء، فتركه وقام يعدو في إثرها لا يلوى على شيء. ومضى نوفل إلى أصحابه فحدثهم بما كان من أمره معه.

نهاية المجنون

ظل قيس يهيم في فيافي نجد مع الوحوش، وكان يقترب أحيانا من حي بني عامر، فيتعهده أهله ويرسلون إليه بالطعام مع حاضنة له كان يأنس لها. وروى أصحاب الأخبار أن رجلا من قبيلة بني مرة خرج إلى أرض بني عامر ليلقاه، فلما سألهم عنه دلوه على فتى من الحيّ كان له صديقا، وقالوا إنه لا يأنس إلا به ولا يأخذ أشعاره عنه إلا هو. فأتاه، فسأله أن يدله عليه، فقال له: إن كنت تريد شعره فكل شعر قاله إلى أمس عندي وأنا ذاهب إليه غدا، فإن كان قال شيئا أتيتك به. فقال له: بل إني أريد لقاءه، فقال: إنني إن جئت معك نفر منك ونفر مني وذهب شعره، فقال له: بل دلني عليه وأنا أذهب إليه وحدي. فقال له: اطلبه في هذه الصحارى فإذا رأيته فادن منه مستأنسا ولا تظهر له أنك تهابه، وستراه يتهددك ويتوعدك بشيء يريد أن يرميك به، فلا يروعنك، واصرف بصرك عنه والحظه أحيانا، فإذا رأيته قد سكن من نفاره، فأنشده شعرا غزلا فإنه

يسكن إليك.

وخرج الرجل فطلبه يومه إلى العصر، فوجده جالسا على رمل قد خط فيه بإصبعه خطوطا، فدنا منه غير منقبض فنفر منه نفور الوحش من الإنس وكانت إلى جانبه أحجار، فتناول حجرا منها، فأعرض عنه الرجل. ومكث قيس ساعة كأنه نافر يريد القيام. ولما طال جلوس الرجل سكن فأقبل يخط بإصبعه، فاتجه إليه، وقال: أحسن والله من يقول:

وإني لَمُفْنٍ دمعَ عَيْنَيَّ بالبُكا حِذَارَ الذى قد كان أو هو كائن

فأقبل على الرجل يبكي حتى ظن أن نفسه قد فاضت وحتى رأى دموعه قد بلّت الرمل الذى بين يديه، وأنشأ يقول:

وأَدْنَيتِنى حتى إذا ما سَبَيْتِنِى بقولٍ يُحِلُّ الوحش سَهْلَ الأباطحِ
تناءيْتِ عنّى حينَ لا لِىَ حيلةٌ وخَلَّفْتِ ما خَلَّفْتِ بين الجوانحِ

ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن الرجل، وعاد إليه من غد فطلبه فلم يجده، وجاءت حاضنته التي تأتيه بالطعام فوجدت ما تركته له بالأمس على حاله. ولما كان في اليوم الثالث غدا عليه وجاء أهله معه فطلبوه جميعا، فلم يجدوه، وفي اليوم الرابع تتبعوا أثره حتى وجدوه في واد كثير الحجارة وهو ميت بين تلك الحجارة، فاحتملوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه.

فجيعة أهله به

لم تبق فتاة من بنى عامر إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه، واجتمع فتيان الحيّ يبكون عليه أحر بكاء وينشجون أشد نشيج، وحضرهم حيّ ليلى معزين وأبوها معهم، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه، وجعل يقول: ما علمت أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكني كنت امرأ عربيا أخاف العار وقبح

الأحدوثة فزوجتها وخرجتْ عن يدى، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ولاحتملت ما كان في ذلك. وما رُئى يوم كان أكثر باكيا وباكية على ميت منه، ويقال إنهم لما حملوه وجدوا خرقة كتب فيها:

ألا أيها الشيخُ الذى ما بنا يرضَى ... شقيتَ ولا هُنِّيتَ من عيشكَ الخَفْضا
شَقِيتَ كما أشقَيْتنى وتركتنى ... أهِيمُ مع الهُلاّكِ لا أطْعَمُ الغَمْضا

موت ليلى

لما بلغ ليلى نبأ وفاة المجنون بكته بكاء مرا، وظلت تندبه أياما، وراجعها زوجها "ورد"، فلم تستمع إليه، بل تمادت في حزنها، فقال لها غاضبا: والله لقد هممت بتخلية سبيلك، فقالت: لوددت أنك فعلت وأني عمياء، فوالله ما تزوجتك رغبة فيك، ولقد كنت آليت على نفسي أن لا أتزوج غير قيس أبدا، ولكن أبي غلبني على أمرى، ووالله إني لزائرة قبر قيس وفاء له. وتجهزت للمسير، ورحلت، حتى نزلت في منازل قوم المجنون، فرآها أهله، فجاءوها مسلّمين، فسألتهم عن قبره، فعرفوها به، فذهبت إليه وبكت وناحت بقول المجنون:

لقد عنّيتنى يا حبَّ لَيْلَى ... فقَعْ إما بموتٍ أو حياةِ
فإن الموتَ أيسرُ من حياةٍ ... منغصةٍ لها طعمُ الشتاتِ
وقالَ الآمرونَ تَعزَّ عنها ... فقلتُ نعم إذا حانَتْ وفاتى

ثم قالت: أما أنى لا أتعزى عنك يا حبيبى ولا أسلوك أبدا، وأنّت ورفعت صوتها تقول:

أبْلَى الثّرى وترابُ الأرض جِدَّته ... وزادنى الموتُ أشجانا على شجنى
أبكى عليه حنينا حين أذكره ... حنينَ والهةٍ حنّت إلى سَكَنِ

أبكي على من حَنَتْ ظهرى مصيبتُه وَطيَّرَ النومَ عن عينى وأرّقنى
والله لا أنسَ حبى الدهر ما سجعتْ حمامةٌ أو بكى طَيْرٌ على فَنَنِ

وجعلت تردد على قبره أياما، وتمكث عنده باكية إلى الغروب. وأتاها زوجها، فاعتذر لها، وبالغ فى اعتذاره، فلم تقبل منه، وظلت أربعين يوما تخرج إلى قبر قيس وتندبه، حتى إذا كان اليوم الأخير زادت فى البكاء والعويل، وألصقت خدها مرارا بالقبر وهى تصيح بأعلى صوتها:

كفى حَزنا أنى أروح بحسرةٍ وأغدو على قبرٍ ومن فيه لا يدرى
فيا نفس ذوقى حَتْفَ عمرك عنده ولا تبخلى باللهِ يا نفس بالعمر
فما كان يأبى أن يجود بنفسهِ ليفديَنى لو كنت صاحبة القبر

وأغرقت فى الندب والنحيب، وانكبت على القبر تقبله وتعانقه، ثم شهقت شهقة مديدة، وصمتت إلى الأبد. وحُركت، فإذا هى قد ماتت.

جَمِيل وبُثَيْنَة

أول الحب

في مساكن بني عذرة حول تيماء ووادي القرى بشمالي الحجاز نشأ جميل وبثينة، وأول ما كان من تعلق جميل بصاحبته أنه أقبل يوما بإبل له حتى أوردها ماء في واد يسمي وادي بغيض، وكان ينزل به قوم بثينة، وتصادف أن كانت هي وإحدى صواحبها تردان الماء، تستقيان منه، فمرتا على بعير له، فنفرهما، فتعرضت لجميل ببعض القول، فوقعت من حينئذ في نفسه، وأخذ ينظم فيها بعض غزله ونسيبه.

ولما عرفت بثينة أن جميلا أحبها ونسب بها حلفت لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه أبدا، فكان يأتيها عند غفلات الرجال، فيتحدث إليها ومع أخواتها، وظلا على ذلك حينا طويلا يتلاقيان ويتشاكيان الهوى.

بأعين أبيها وأخيها

وسعت جارية لبثينة بها إلى أبيها وأخيها، وقالت لهما إنها واعدت جميلا الليلة، وهي معه الآن، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسا بعيدا عنها بحيث تسمع حديثه، وهو يشكو إليها بثه وحبه، وفي أثناء حديثه قال لها: يا بثينة أرايت ودّى إياك وشغفي بك ألا تجزينه؟ قالت: بماذا؟ قال: بم يكون بين المتحابين، فأنكرت عليه قوله. فقال: والله ما أردت قبيحا، إنما أردت أن أبلوك، ولو رأيت منك مساعدة لي لضربتك بسيفي هذا وهجرتك هجر الأبد، أو ما سمعت قولي:

وإني لأرضى من بُثينةِ بالذى لو ابصرهُ الواشي لَقرَّتْ بلابلُهْ
بِلاَ، وبأنْ لا أستطيعَ ، وبالُمنى وبالأملِ المرجوِّ قد خابَ آملُهْ
وبالنظرةِ العَجْلى وبالحَوْل تنقضي أواخرُه لا تلتقِي وأوائلُه

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما وجدنا عليهما من ريبة، وانصرفا وتركاهما. والتفت جميل إلى بثينة وقال:

لقد قلت في حبي لكم وصبابتي محاسنَ شعرٍ ذِكرهن يطولُ
فإن لم يكن قولى رضاك فعلّمي هَبوبَ الصَّبا يا بَثْنَ كيف أقول
فما غاب عن عيني خيالُك لحظةً ولا زال عنها، والخيالُ يزول

وما زالا يتحدثان حتى أصبحا فودعها وداع المحب الوامق.

هجر ثم وصل

وحدث يوما أن أقبلت بثينة على فتى من عشيرتها، لترى أثر هذا الإقبال في نفس جميل، فأنشد توا:

وعُدْنا كأنّا لم يكن بيننا هوى وصار الذى حلّ الحبال هَوًى لها
وقالوا نراها يا جميلُ تبدّلتْ وغيَّرها الواشي فقلت: لعلّها

وذهب يندب حظه في أشعار كثيرة، يذكر فيها هجرها وأنها لم تحافظ على عهدها له، وقال فيما قال:

يا ليتني ألقى المنيّة بغتةً إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلّداً من ذِكركم فيفيق بعض صبابتي وتفكُّرى
يهواكِ ما عشتُ الفؤاد فإن أَمُتْ يَتْبع صَداى صداكِ بين الأقْبُر

ورقّت له، فواعدته، والتقيا، وأخذ كل منهما يشكو صاحبه، وقد بلغ الأمر من جميل كل مبلغ، فأنشأ يقول:

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عنوةً — وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هيا
وإني لتَثْنيني الحفيظةُ كلما — لقِيتُكِ يوما أن أبثّك ما بيا

فالتفتت بثينة إلى مولاة لها كانت معها وقالت لها: ما أحسن الصدق بأهله، ونظرت إلى جميل وقالت له: أنشدني قولك:

تظل وراء السِّتر ترْنُو بلحظها — إذا مرَّ من أترابها من يروقها

فأنشدها إياها فبكت، وقالت: كلا يا جميل ومن ترى أنه يروقني غيرك.

أهل بثينة يمنعون جميلاً من لقائها

شاع شعر جميل في بثينة، وكان من عادة العرب حين يكثر شاعر من غزل بفتاة أن يمنعوه من لقائها حتى لا يفضحهم بها، فتعرض له أبوها وأخوها يتهددانه بالقتل إن هو عاد إلى صبوته بها وفضيحتها في أحياء العرب. فكان يقول: والله القتل أحبُّ إليَّ من عدم لقائها، وإني لأتمنى الموت فيها وينشد:

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي — وهمّوا بقتلي يا بثينَ لَقُوني
إذا ما رأَوْني طالعا من ثنيّةٍ — يقولون: من هذا وقد عرفوني
يقولون لي: أهلا وسهلا ومرحبا — ولو ظَفِروا بي ساعةً قتلوني

وكانوا كلما نمى إليهم أنه قريب من دارهم حرسوها ومنعوها من لقائه، فكان يظن أنها هجرته، وكان نساء الحي يقرّعْنه بذلك ويقلن له إنها مشغولة بغيرك، وإنما حصلت منها على الباطل والكذب، وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها، فكان يقول:

منّيتني فلويْتِ ما منيتني — وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجلِ
وتثاقلتْ لما رأت كَلَفي بها — أحببْ إليَّ بذاكَ من متثاقلِ
وأطعتِ فيَّ عواذلا فهجرتِني — وعصيتُ فيكِ وقد جَهَدْنَ عواذلي

حاولننى لأبُتَّ حبلَ وصالكم منى، ولستُ وإن جَهَدْن بفاعلِ
ويقلنَ إنّك قد رضيتَ بباطلٍ منها فهل لك فى اجتناب الباطلِ
ولَباطلٌ مما أحبُّ حديثَهُ أشهَى إلىَّ من البغيض الباذلِ
لِيُزِلْن عنكِ هواى ثم يَصِلْنَنى وإذا هَوِيتُ فما هوایَ بزائلِ

لقاء على غير موعد

ظل جميل ممنوعا من لقاء بثينة مدة وهو لا يتعرض لها بجهده، فلا يصل إليهـا، وبينما هو ذات ليلة جالس فى أشجار بالقرب من حيها، وقد أقام فيها ثلاث ليال ينتظرها، وإذا بشخص قد أقبل إليه، فانتضى سيفه خائفاً، وإذا هى بثينة، فتعانقا طويلا. وجلسا صامتين، وجميل لا يستطيع أن يحدثها ولا أن يراجعها كلمة حتى أسفر الصبح، فودع كل منهما صاحبه، ولم يلبث أن ذكر ما كان فيه فقال:

وإنْ تَكُ قد شطَّتْ نَواها وقد نأت فإن النَّوَى مما تُشِتُّ وتجمعُ
وإن يك طولُ الحب يا قلب نافعى فقد طالما أحببت والصبر أنفع
ولست كمن يُفْشى على الخِدن سرّه وعندى له فى الصدر سرٌّ وموضع
وأنسى إذا لاقيتها بخلالها من القول ما قد كنت بالأمس أجمعُ
فيا رب حَبِّبْنى إليها وأعطنى الـ مودة منها أنت تعطى وتمنعُ
وإلا فصبِّرْنى وإن كنت كارها فإنى بها يا ذا المعارجِ مولعُ
وفى الصبر عن بعض المطامع راحةٌ إذا لم يكن فى الشي ترجوه مطمعُ

رسول إلى بثينة

كان كثير صاحب عزة يألف جميلا ويلزمه، فلقيه يوما، فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من عند أبى الحبيبة – يعنى بثينة – فقال له: وإلى أين تمضى؟

فقال إلى الحبيبة – يعني عزة – فقال له: لابد من أن ترجع عودك على بدئك، فتأخذ لي موعدا من بثينة، فقال كثير: عهدى بها وبأبيها الساعة، وأستحي أن أرجع، فقال جميل: لابد من ذلك. فقال له كثير: فمتى كان آخر عهدك بها؟ قال جميل: في أول الصيف، وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدَّوْم، إذ خرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابا، فلما أبصرتني أنكرتني، وضربت بيديها إلى ثوب في الماء فغطَّت نفسها به، وعرفتني الجارية فأعادت الثوب في الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس. وسألتها موعدا، فقالت: أهلي سيرتحلون عن قريب. وما وجدت أحدا آمنه فأرسله إليها. فقال كثير له: فهل لك في أن آتى الحي فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها؟ قال جميل: ذلك الصواب. فأرسله إليها، فقال له كثير: انتظرني.

ثم خرج كثير حتى أناخ بدار بثينة ناقته، ورآه أبوها، فقال له: ما وراءك؟ قال كثير: ثلاثة أبيات عرضت لي فأحببت أن أعرضها عليك، قال هاتها، قال كثير: فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عزّ أرسلَ صاحبى إليكِ رسولا والموكّل مُرْسَلُ
بأن تجعلي بيني وبينكِ موعدا وأن تأمريني ما الذى فيه أفعل
وآخر عهدى منك يوم لقيتني بأسفل وادى الدوم والثوبُ يغسلُ

فضربت بثينة جانب خدرها، وقالت: اخسأ، اخسأ، فقال أبوها: ما الذى بك يا بثينة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء الرابية. ثم قالت للجارية: ابغينا من الدَّوْمات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك.

وراح كثير إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدَّوْمات. وقالت بثينة لبنات خالتها: أم الحسين وليلى ونجية وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن:

إلى قد رأيت في لحن نشيد كثير أن جميلا معه. وخرج كثير وجميل حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة ومن معها، فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت مجلسا قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر، ما أدرى أيهما كان أفهم.

مبارزة

خطب جميل بثينة من أبيها فرده، لكراهة العرب أن يزوجوا بناتهم ممن يشهِّرون بهن ويتغزلون فيهن، فخطبها ابن عم لها يسمى نبيها، فوعده أبوه أن يزوجها منه، غير أنها لم ترضه لنفسها إذ كان قبيحا دميما في إحدى عينيه نكتة بياض قبيحة. وحدث أن خرج جميل وابنا عمه: روق ومسعدة وخرج معهما نبيه إلى الصيد، فمر بهم رجل من قبيلة خزاعة كان قويا يهوى المبارزة والمصارعة، فقال له نبيه: هل لك فى مصارعتى؟ قال: ذلك إليك، فتصارعا، فصرعه الخزاعى وجلس على صدره. فضحك جميل وصاحباه من ذلك، فقام نبيه إلى الخزاعى، فقال له: عاودنى، فقال: لا أفعل، فتعلّق به. فقال له جميل: ماذا تريد من الرجل؟ طالبته بالصراع، فصرعك، والمعاودة إليه إن أرادها، وإلا فلا سبيل لك عليه. قال: أفتصارعنى يا جميل؟ قال: وما تريد بذلك؟ قال: أحبه وأشتهيه. قال جميل: فوالله مالك فيه خير، فإن أحببته على ذلك فهلمّ.

وتصارعا فصرعه جميل. ثم سأله المعاودة فصرعه ثانية، ثم سأله المعاودة ثالثة فصرعه. وقام نبيه فانصرف إلى الحىّ مغضبا، وأقام جميل مع ابنى عمه على صيدهم. وسأل فتيان العشيرة نبيها عن سبب رجوعه دون أصحابه، فقال: دعانى جميل إلى المصارعة، فكرهت ذلك، ثم ألح على، فصارعته، فصرعته، فوثب علىّ ابنا عمه، فنحيانى عنه وألقياه على صدرى، فرجعت مغضبا. فقالوا له: ما كان ينبغى لك أن تصارع ابن عمك. وإذ قد جرى هذا فلا ينبغى لك أن

تفيض في ذكره ولا تعيده. ولكنه مضى يذيع ذلك فقالت بثينة: كذب والله نبيه لو صرع جميلا ما غم وجهه وتكدر ولكن جميلا صرعه، فجاء مغضبا، وتضاحكت به هي ونساء الحيّ. وعاد جميل وصاحباه فتحدثوا بالخبر على وجهه الصحيح.

زواج بثينة

ألح نبيه منذ صرعه جميل على أبي بثينة أن يزوجها منه، وبذل له مالا عظيما وكان كثير المال، فتزوجها ودخل بها على كره منها. ولما بلغ ذلك جميلا وعرف أنها لم تعد من حظه بكى أحر بكاء، وأنشد:

أعاذلَ قد أكثرتِ جهلا من الجهل على غير شيء من ملامي ومن عَذلي
ولو تركتْ عقلي معي ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلي
فيا ربِّ ما وقّيت شيئا فوقّها حُتوفَ الرّدى يا ربِّ واجمع بها شملي
فأنتِ حديث النفس إن كنت خاليا وجلُّ حديثي أنت في الجد والهزلِ
فلا تقتليني يا بثينَ فلم أصبْ من الأمر ما فيه يحلّ لكم قتلي
ويا رب لا تجعلْ بثينة شقوة عليّ ولا تجعل بهجرانها قتْلي

بثينة لا تنساه

ما برحت بثينة بعد زواجها تذكر جميلا وتسأل عن شعره الذى ينظمه في هواها، وكان لا يزال يلم ببيتها فرأته جارية لها فلم يكلمها ولا أعلمها أنه قصد صاحبته، وجلس غير بعيد مستظلا بشجرة. فبادرت الجارية إلى بثينة فأعلمتها. فجاءت هي وبعض بنات خالتها: أم الحسين وليلى ومعهن عجوز تسمى أم منظور، فلما رأينه سلّمن عليه وجلس إليهن، فقالت له أم منظور: أين كنت بعدنا؟ لقد طال شوقنا إليك فقال: كنت في أهلي إذ رأيت التباعد عما أحدث

أجمل. فبكت بثينة وقالت: لكنا والله ما تباعدنا منك ولا زادتنا الليالى إلا شوقا إليك وتجديدا لمودتك وتحدثا بقية يومهما، وسألته أن ينشدها بعض ما أحدث من شعره فقال:

ألا هل إلى إلمامةٍ أن أُلِمَّها بثينة يوما فى الحياة سبيلُ
فإن هى قالت: لا سبيل فقل لها: عناءٌ علي العذرىّ منك طويلُ
على حين يسلو الناس عن طلب الصِّبا وينسى اتّباع الوصل منه خليلُ

فبكت وجزعت، ثم قالت له: إني أعجب مما تتمناه في قولك،

ألا ليتنى أعمى أصمُّ تقودنى بثينة لا يخفى علىّ كلامها

ويحك! ما حملك على هذه الأمنية، أو ليس فى سعة العافية ما يكفينا. وأمسى المساء فتركها وانصرف.

ليلة مع بثينة

رصد جميل بثينة ذات ليلة، حتى إذا صادف منها خلوة تنكر ودنا منها، وذلك فى ليلة ظلماء ذات غيم ورعد وريح، فحذفها بحصاة فأصابت بعض صواحبها ففزعت وقالت: والله ماحذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن فقالت لها بثينة وقد فطنت: إن جميلا فعل ذلك، فانصرفى يا أختى إلى خبائك حتى ننام، فانصرفت، وبقيت مع بثينة العجوز أم منظور وابنة خالتها أم الجسير. فقامت معهما إلى جميل، فأدخلنه الخباء، وكان زوجها غائبا، فدخل وهو ينشد:

لها فى سواد القلب بالحب مَنْعةٌ هى الموتُ أو كادت على الموت تُشْرفُ
وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنَ مرةً من الدهرِ إلا كادتِ النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يذرفُ
وما استَطْرفتْ نفسى حديثا لخلّةٍ أُسَرُّ به إلا حديثُكِ أَطْرَفُ

وتحدثا طويلا حتى أخذهما النوم.

وجاء غلام زوجها بصبوح من اللبن، فرآها نائمة وبالقرب منها جميل، فمضى لوجهه يخبر أهلها ولقيته أختها ليلى والصبوح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجارية لها، وقالت احذرى جميلا وبثينة، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت، وقالت: يا جميل نفسك نفسك قد جاء غلام زوجي بصبوح من اللبن فرآنا نائمين. فقام وودعها وهو يبكي قائلا:

ألا أيُّها البيتُ الذى حيلَ دونَهُ ... بنا أنت من بيتٍ وأهلُك من أهلِ
ثلاثة أبياتٍ فبيتٌ أحِبّه ... وبيتان ليسا من هوايَ ولا شكلى
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابةً ... إلى إلْفِه واستعجلتْ عبرةٌ قبْلى
خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأيتُما ... قتيلاً بكى من حبّ قاتلهِ قبلى

أهل بثينة يطاردونه

وذكر رجل من بني عذرة أنه كان جالسا يوما مع جميل وهما يتحدثان وإذا وجهه يكفهر، فأنكره ورأى منه غير ما كان يرى، ووثب جميل نافرا مشعث الشعر متغير اللون، فأتى بناقة له قوية موثقة الخلق، فشدَّ عليها رحله، ثم أتى بقدح فيه لبن فشربه وجاء الرجل بقدح آخر، ثم قال له: اشدد جملك واتبعني فإني ذاهب إلى بعض مذاهبي، ففعل ما طلبه إليه. فسارا حتى انتهيا إلى منازل قوم، لم يجدا بها أحدا من الرجال، إذ كانوا في نجعة، وقد خلفوا النساء وراءهم، فمال جميل إليهن، فلما رأينه عرفنه، وكانت فيهن صاحبته بثينة. وبينما هو يحدثهن إذا الرجال قد أقبلوا، فقلن له: ويحك: انج بنفسك وبصاحبك، فلم يلتفت إلى ما قلن. وغشيه رجال الحيّ فجعلوا يرمونه ويطردونه. فانصرف بصاحبه ومضى به حتى رجع إلى أهله.

وعد لا يتحقق

وزار جميل بثينة ذات يوم فنزل قريبا من ماء عشيرتها (البئر التى يشربون منها) يترصد جارية لها فلم يكن نزوله بعيدا من ورود جارية حبشية لها، ومعها قربة، وكانت به عارفة وبما بينه وبين بثينة. فسلمت عليه وجلست معه، وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويحدثها بخبره بعدها، ويحملها رسائله. ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه إلى بثينة وتأخذ موعدا عليها، فوعدته بتحقيق ذلك. وانصرفت إلى أهلها وقد أبطأت عليهم. فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها، فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم وتعللت، فضربوها ضربا مبرّحا، فأعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه.

ومر بهم في تلك الحال فتيان من بنى عذرة فسمعا القصة كلها وعرفا الموضع الذى فيه جميل، فأحبا أن يثبطا عنه أهل بثينة، فقالا لهم: إنكم إن لقيتم جميلا وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم في ذلك كل مكروه، وأهل جميل شجعان أشداء، لا يتركون ثأرهم، فدعوا الجارية توصل خاتمه إلى بثينة. فإذا زارها صنعتم ما شئتم، قالوا: صدقتما إن هذا هو الرأى. فدفعوا الخاتم إلى الجارية وأمروها بإيصاله وحذروها أن تخبر بثينة بأنهم علموا القصة، ففعلت، ولم تعلم بثينة بما جرى. ومضى الفتيان فأنذرا جميلا، فقال: والله ما أرهبهم وإن فى كنانتى ثلاثين سهما، والله لا يخطئ كل واحد منها رجلا منهم، وهذا سيفى والله ما أنا رعش اليد ولا جبان الجنان. فناشداه الله وقالا: البقية أصلح، فتقيم عندنا في بيوتنا حتى ينتهى طلبهم لك، ثم نبعث إليها فتزورك وتنصرف سليما غير معيب. فقال: أما الآن فابعثا إليها من ينذرها، فأتياه بجارية لهما وقالا له: قل ما حاجتك؟ فقال: ادخلى إليها وقولى لها: إنى أردت اقتناص ظبى فحذره ذلك جماعة، وقالوا له: إياك، ففاتنى الليلة.

فمضت الجارية فأعلمت بثينة ما قال لها جميل، فعرفت قصته، وسألت أهلها

فعرفوا الخبر، فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح مكانها، ومضوا يقتصون أثره، فلم يجدوه، فعرفوا أنه قد فاتهم. وظل جميل عند صاحبيه أياما ينتظر لقاء بثينة، فلم يتحقق له ما شاء، ولا استطاع صاحباه أن يسعفاه، فتركهما ومضى على وجهه وهو ينشد:

ألا من لقلبٍ لا يَمَلّ فيَذْهَلُ — أَفِقْ فالتعزّى عن بثينة أجملُ
وإنّ التي أحببتَ قد حِيل دونها — فكُنْ حازما ، والحازم المتحوِّل
سلا كلُّ ذى وُدٍّ علمتُ مكانَه — وأنتَ بها حتى الممات موكّلُ
فيا قلبُ دَعْ ذكرى بثينة إنها — وإن كنت تهواها تضنُّ وتبخل
وما هو إلا أن أهيمَ بذكرها — ويحظَى بجَدْواها سواى ويَجْذَلُ
وآخر عهدى من بثينة نظرةٌ — على موقفٍ كادتْ من البَيْن تقتُل
وإنى لأستبكي إذا ذُكِر الهوى — إليكِ وإنى من هواك لأَوْجَل
إذا ما كررتُ الطّرْفَ نحوكِ ردّه — من البعد فيّاضٌ من الدمع يَهْمِلُ

مساعدة ولقاء

شكا زوج بثينة إلى أبيها وأخيها إلمام جميل ببيتها وبها، فوجهوا إلى جميل وأعذروا إليه وشكوه إلى عشيرته وتوعدوه ، وأتى جميل أهله فلاموه وعنفوه وقالوا له: إنا نستحلف إليهم ونتبرأ منك ومن جريرتك (جنايتك) ، فأقام مدة لا يلم بها. ثم لقى ابنى عمه: روقا ومسعودا فشكا إليهما ما به ، وأنشدهما قوله:

زورا بثينةَ والحبيب مزورُ — إن الزيارةَ للحبيب يسيرُ
إنى عشيةَ رحتُ وهْي حزينةٌ — تشكو إلىّ صبابةً لصبور
وتقول بتْ عندى فديْتُك ليلةً — أشكو إليك فإن ذاك يسير
غَرّاءُ مِبْسامٌ كأنّ حديثها — دُرٌّ تحدّر نَظْمُه منثورُ

لا مثلها حُسْنٌ ولا كدلالها ذَلٌّ ولا كوقارها توقيرُ
ولئن جَزَيْتِ الودَّ منى مثلَه إنى بذلك يا بُثَيْن جديرُ

فقال له روق: إنك لعاجز ضعيف في حبك هذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك بين ذل لا أحبه لك أو كمد يؤديك إلى التلف أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت، فبكى وأنشد:

لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابةٍ حبيبٌ إليه في ملامته رُشدى
وقال أفقْ حتى متى أنت هائمٌ ببثْنَةَ فيها قد تعيد وقد تُبْدى
وإن يكُ رُشْداً حبُّها أو غوايةً فقد جئتُه ما كان منى على عَمْدِ
لقد لجّ ميثاقٌ من الله بيننا وليس لمن لم يوف لله من عهدِ
أفى الناس أمثالى أحبُّوا فحبُّهم كحبِّىَ أم أحببتُ من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى
إذا ما دنتْ زدت اشتياقا وإن نأتْ جزعتُ لنأى الدار منها وللبُعْد
وكلُّ محبٍ لم يَزِدْ فوقَ جُهْدِه وقد زدتُها فى الحبّ منّى على الجَهْدِ

ثم التفت إلى ابن عمه وقال له: يا أخي لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صوابا، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا، ولقد جئتك لأمر أسألك أن لا تكثّر ما رجوته عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك في مساعدتي، فقال له: فإن كنت لابد مهلكا نفسك فاعمل على زيارتها ليلا فإنها تخرج مع بنات عمها إلى ملعب لهن، فأجيء معك حينئذ سرا، ولى صديق من عشيرة بثينة تأوى عنده نهارا وأسأله مساعدتك على هذا، فتقيم عنده أياما نهاراً وتجتمع معها بالليل، فشكره.

ومضى روق إلى الرجل الذى من رهط بثينة فأخبره الخبر، واستعهده كتمانه، وسأله مساعدته فيه، فقال له: لقد جئتني بإحدى العظائم ويحك! إن في هذا معاداتي الحيّ جميعا إن فطن أحد به. فقال روق: أنا أتحرز في أمره من أن يظهر. فوعده بذلك. ومضى روق إلى جميل فأخبره بالقصة، فأتيا الرجل فأقاما عنده، وأرسل إلى بثينة بجارية له بخاتم جميل، فدفعته إليها. فلما رأته عرفته. وتبعتها فجاءته، فتحدثا ليلتهما، وكذلك في ليلتين ثانية وثالثة. ثم ودعها وقال لها: عن غير بغض والله ولا ملل كان وداعي إياك. وشكر لمضيفه وانصرف مع ابن عمه.

في زى راع

جاء جميل إلى بثينة وقد اتخذ ثياب راع من رعاة الحيّ، فلم يعرفه أحد، ووجد عند زوجها ضيفانا له، فانتبذ ناحية، وسألته جارية من أنت؟ فقال: مسكين. وجلس وحده، وطعم الضيفان طعام العشاء وتعشى وحده.

وبينما بثينة جالسة مع جواريها على صلاء النار وقد اضطجع الضيفان، وهم منتحون في جانب من البيت، فقال جميل:

هل البائسُ المقرور دانٍ فمُصْطَلٍ   من النار أو مُعْطَى لحافاً فلابسُ

فقالت بثينة لجاريتها: صوت جميل والله اذهبي فانظرى. فرجعت إليها فقالت: هو والله جميل، قد جاء في ثياب راع. فشهقت بثينة شهقة سمعها القوم فأقبلوا يهرعون إليها، وقالوا لها ما لك: فطرحت ثوبا من حرير في النار وقالت: احترق ثوبي. فرجع القوم وأرسلت جاريتها إلى جميل، فتواعدا، وخرجت له، وبث كل منهما صاحبه وجده. وما زالا حتى برق الصباح فودعها وهو يبكى أحرّ بكاء ويقول:

ألا أيُّها الحبُّ المبرِّح هل ترى أخا كَلفٍ يُغْرِى بحبٍّ كما أُغْرِى
هى البدر حسنا والنساء كواكبٌ وشتّان ما بين الكواكب والبدرِ

أبو جميل ينصحه

شكا زوج بثينة وأهلها جميلا إلى الوالى فأباح لهم قتله إن وجدوه مع بثينة، فأعذروا إلى أهله مرارا وهو لا يرعوى ولا يزدجر عن الإلمام بدار صاحبته. ولما أعياهم أمره توجهوا إلى أبيه فناشدوه الله والرحم، وسألوه كفَّ ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به فى بثينة، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع، ثم انصرفوا. فدعا به، فقال له: يا بنى حتى متى أنت فى ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل تغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فقولها لك إنما هو تعليل وغرور. إن هذا لذل لك وضيم. وما أعرف أخيب حظا ولا أضيع عمرا منك، فأنشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك، وإنك تعلم أن ما قلته حق، ولو كان لك سبيل إليها لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قُدِّر له، وفى النساء عوض. فقال له جميل: الرأى ما رأيت والقول كما قلت، فهل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لقضاء قدِّر لى. وأنا سأمتنع من طروق هذا الحىّ والإلمام بهم ولو مت كمدا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه. وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه.

جميل يحاول السلوان

لما خاف جميل على نفسه من قوم بثينة ونصحه أبوه ووعده أن يمتنع من الإلمام بحيها فكر ماذا يصنع، وهداه تفكيره أن يرحل إلى الشام ويمدح خلفاء بنى

أمية، فيصلوه، ولعله ينسى صاحبته. ومدحهم ونال جوائزهم وظلت ذكرى بثينة لا تفارقه، وطالما أنشد:

منع النومَ شدةُ الإشتياقِ وادّكارُ الحبيبِ يومَ الفراقِ
ولقد قلتُ يوم نادى المنادى مستحثًا برحلةٍ وانطلاقِ
ليت لى اليومَ يا بثينةُ منكم مجلسا للوداع قبل الفراقِ

وعاد أدراجه إلى قومه. وبلغ بثينة أنه عاد، فراسلته مع بعض نساء الحيّ تذكر شوقها إليه ووجدها به، وواعدته لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدثها طويلا. وعرف أهلها أنها لقيته، فرصدوها وشددوا عليها حتى لا تغافلهم وتلقاه.

حيلة فى اللقاء

انقطع التلاقى بين جميل وبثينة مدة، فركب بعيره، وخرج إلى الصحراء يروح عن نفسه، فلقى رجلا من بنى حنظلة فقال له: ممن أنت يا عبد الله، فقال: رجل من بنى حنظلة، فقال: انتسب، فانتسب له. فقال له: هل لك فى خير تصطنعه إلىّ، فوالله لو أعطيتنى كل ما ترعى من إبلك ما كنت بأشكر منى لك عليه، فقال الرجل: نعم ومن أنت أولا؟ فقال له: لا تسألنى من أنا، ولا أخبرك، غير أنى رجل بينى وبين هذه العشيرة التى تنزل وراء هذا السفح القريب الذى تراه ما يكون بين بنى العم من بعض الموجدة فإن رأيت أن تأتيهم فإنك تجدهم فى مجلسهم فتنادى وتسألهم ناقة بيضاء غفلا من العلامات، فإن ذكروا لك شيئا فذاك، وإلا فاستأذنهم فى المرور بخيام الحىّ فإن المرأة والصبى قد يريان ما لا يرى الرجال، فتسألهم، ولا تدع أحدا تصيبه عينك ولا خيمة من خيامهم إلا طلبتها فيه.

فأتى الرجل القوم، فإذا هم مجتمعون على بعير ذبحوه، يقتسمونه، فسلم وانتسب لهم ونشدهم (سألهم) ضالته، فلم يذكروا له شيئا ولا أنهم رأوها،

فاستأذنهم فى الخيام، وقال إن الصبى والمرأة يريان ما لا يرى الرجال، فأذنوا له، فأتى أقصاها خيمة، واستقراها خباء خباء، ينشد الناقة، فلا يجيبه أحد، حتى إذا انتصف النهار وآذاه حر الشمس وعطش وذهب لينصرف حانت منه التفاتة، فإذا بثلاثة خيام، فقال فى نفسه: ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم، ثم رجع فقال: سوءةً ! وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل مالى، ثم آتيه فأقول: عجزت عن ثلاثة خيام. فانصرف عامدا إلى أعظمها خيمة، فسلم وسمع من يرد عليه السلام، وذكر ضالته، فخرجت إليه امرأة، وقالت له: يا عبد الله قد أصبت ضالتك، وما أظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب، فقال: أجل، فدخلت، فأتته بصحفة مفضضة، فيها تمر، وقدح مفضض فيه لبن، وقالت له: دونك، فتجمع وشرب من اللبن حتى روى، فقال لها: يا أمة الله، والله ما أتيت اليوم أكرم منك ولا أحق بالفضل، فهل ذكرتِ من ضالتى شيئا، فقالت: هل ترى هذه الشجرة فوق التل؟ فقال: نعم، قالت: فإن الشمس غربت أمس وهى تُطيف حولها، ثم حال الليل بينى وبينها فلم أعرف عنها شيئا.

فقام الرجل وجزاها الخير وقال: والله لقد تغذيت ورويت، فخرج حتى أتى الشجرة، فأطاف بها، فلم ير للناقة من أثر، فأتى صاحبه، فإذا هو متلفع بكسائه فى الإبل يغنى ببعض الشعر، فقال له: السلام عليك، قال: وعليك السلام، ما وراءك؟ فقال الرجل: ما ورائى من شىء، قال لا عليك، فأخبرنى بما فعلت، فقص عليه القصة، حتى انتهى إلى ذكر المرأة وأخبره بالذى صنعت معه، فقال: قد أصبت ما كنت تطلب، فعجب الرجل من قوله، ثم سأله جميل عن صفة الإناءين: الصحفة والقدح، فوصفهما له، فتنفّس الصعداء وقال: قد أصبت ما كنت تطلب ويحك. ثم ذكر له الرجل الشجرة وأنها رأت الناقة تطيف بها، فقال له: حسبك.

وأمسى مع الرجل حتى أوت إبله إلى مباركها، وما زال معه حتى ظن أنه

نام، فقام إلى حقيبة له، فاستخرج منها ثوبين فلبس أحدهما وتردّى بالآخر، ثم انطلق عامدا نحو الشجرة. وقام الرجل من خلفه، فسار وراءه متخفيا حتى انتهى إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة، فاستتر بهن. ونظر فإذا صاحبة رفيقه عند الشجرة تنتظره، وقد جلست وجلس جميل منها غير بعيد، وكان الرجل بحيث يسمعهما. وكان أول ما طرق سمعه سلام جميل عليها وسؤاله عن حالها، سؤالا كريما بعيدا من كل ريبة، وسألته مثل سؤاله. ثم أمرت جارية معها، فقربت إليه طعاما، فلما أكل وفرغ قالت له: أنشدني ما قلت في غربتك، فأنشدها:

ألا ليتَ رَيْعَانَ الشباب جديدُ ودهرا تولّى يا بُثَيْنَ يعودُ
فنَغْنَى كما كنا نكونُ وأنتمُ قريبٌ وما قد تَبْذُلين زهيد
ألا ليتَ شعرى هل أبيتنّ ليلةً بوادى القُرَى إنّيَ إذن لسعيد
وهل ألْقَيَنْ فَرْدًا بثينة مرةً تجود لنا من ودّها ونجود
فقد تلتقى الأشتات بعد تفرُّق وقد تُدرَكُ الحاجاتُ وهي بعيد
علقْتُ الهوى منها وليداً فلم يَزَلْ إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأفنيت عمرى فى انتظارِ نوالها وأبليتُ فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتِلِى من الحب قالت ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت رُدّى بعض عقلى أعِشْ به مع الناس قالت ذاك منك بعيدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ولا حبُّها فيما يَبيدُ يبيدُ
وقلت لها: بيني وبينك فاعْلمي من الله ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حبّيكُم طَرِيفا وتالداً وما الحبُّ إلا طارفٌ وتَلِيدُ
يموت الهوى منّي إذا ما لَقِيتها ويَحْيَـا إذا فارقتها فيعود

فقالت له: أحسنتَ ولا فُضَّ فوك. ولم يزالا يتحدثان ما يقولان هُجْرًا ولا سوءا إلى الصباح، فودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ثم انصرفا، فقام الرجل فمضى إلى إبله، واضطجع نائما، فجاء جميل، فقال له: حتى متى تنام، فقام

الرجل وتوضأ وصلى وحلب إبله وأعانه جميل، وما لبث أن حدثه حديثه وانتسب له، فعرف أنه جميل وأن المرأة بثينة، وقال له: إني قلت أبياتا في منصرفي من عندها، فهل لك أن تذهب إليها وتنشدها؟ وقال الرجل نعم، فأنشده:

ألا ياليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً كليْلَتِنا حتى نرى ساطع الفجرِ
ولو سألتْ منى حياتى بذلتُها وجُدْتُ بها لو كان ذلك من أمرى

ثم ودعه وانصرف. فذهب الرجل إلى خباء ليلى وسلم فبرزت له، فأنشدها البيتان فدمعت عيناها، ودعته فأكرمته.

الوداع الأخير

أقام جميل مدة طويلة لا يستطيع الإلمام بدار بثينة ولا لقاءها، وكان قد أضناه الجوى وأسقمه، فعزم على المضى إلى بلد ناء بعيد، لعله يتعزى عنها أو يسلوها. وكان الناس يكثرون من الحديث عن عبد العزيز بن مروان والى مصر وكرمه وكثرة بذله وعطائه للشعراء، فعزم جميل على الرحيل إليه، ولكنه فكر في بثينة وفي هذا الفراق الطويل، فمضى قاصدا إلى حيها غير آبه بما قد يلقى من مكروه، وكانت جالسة أمام خبائها مع بعض صواحبها، وإذا برجل قد أقبل عليها، فسلم، وردت السلام وتأملته، فإذا هو جميل، فقالت دهشة: أجميل؟ فقال: نعم، فقالت: فيم جئت؟ قال: جئت أحدث عهدا بك وإنى راحل إلى مصر، وتحدثا ساعة، ثم ودعها وهو يبكى منشدا:

أرى كل معشوقَيْن غيرى وغيرها يلذّان في الدنيا ويغتبطان
أصلّي فأبكى في الصلاة لذكرها لِيَ الويْلُ مما يكتب الْمَلكانِ
ضَمِنْتُ لها أن لا أهيمَ بغيرها وقد وَثِقتْ منى بغير ضمانِ
ألا يا عبادَ الله قُوموا لتسمعوا شكاية معشوقين يشتكيان
يعيشان في الدنيا غريبَيْنِ أيْنما أقاما وفي الأعوام يلتقيان

طائف

انتجع حيّ بثينة موضعا في البادية، وبينما هي في هودج تسير ليلا، إذا بهاتف ينشد قول جميل:

رحل الخليطُ جِمالهم بسوادِ   وحَدَا على أَثَرِ البخيلة حادى
ما إن شعرتُ ولا علمتُ ببَيْنهم   حتى سمعتُ به الغرابَ ينادى

فلم تتمالك أن رمت بنفسها وأهلها ينظرون، وبقيت تطلب المنشد فلا تقف عليه، فنادت: أيها الهاتف بشعر جميل ماوراءك منه؟ فلم يجبها مجيب، فنادت ثلاثا وفي كل ذلك لا يرد عليها أحد شيئا، فقال لها صواحبها: أصابك يا بثينة طائف من الجن، فقالت: كلا لقد سمعت قائلا يقول، وأنشدت البيتين، قلن لها: نحن معك ولم نسمع شيئا. فرجعت وركبت مطيتها وهي حيرى والهة العقل كاسفة البال، ثم سارت القافلة. فلما كان في الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بقول جميل:

أبى القلبُ إلا حبَّ بَثْنَةَ لم يُرِدْ   سِوَاها وحبُّ القلبِ بثنةَ لا يُجْدى
إذا ما دنتْ زدت اشتياقا وإن نأت   جزعت لنأى الدارِ منها وللبعد

فرمت بنفسها وسعت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقالت: أيها الهاتف ارحم حيرتي وسكن عبرتي وأخبرني عن جميل، فلم يرد عليها شيئا. فرجعت إلى رحلها وركبت، وسارت وهي ذاهبة العقل، وفي كل ذلك لا يخبرها صواحبها أنهن سمعن شيئا. فلما كانت الليلة الثالثة نزل أهلها في موضع وأخذ الحيّ مضاجعهم ونامت كل عين، فإذا الهاتف يهتف بقول جميل:

لقد فرح الواشون أن قَطعَتْ حَبْلي   بثينةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون: مهلا يا جميل وإنني   لأُقسم ما بي عن بثينة من مَهْلِ

فأقبلت نحو الصوت، فلما قربت منه لم تجد أحدا، فعادت وهي تبكي وتقول: تالله إن لجميل لنبأ، فقال لها صواحبها: ما هذا يا بثينة؟ وما أصابك؟ إنها

هواجس مرت ببالك وخيالك فخففي عن نفسك ولا تظني إلا خيرا.

وفاة جميل

لقي عبد العزيز بن مروان والي مصر جميلا لقاء كريما، ولكن القدر كان له بالمرصاد، فلم يلبث أن مرض مرضا قضى فيه نحبه. ولما ثقل عليه المرض عاده رجل من عشيرته، فلما دخل عليه نظر إليه وقال: يا ابن سعد ما تقول في رجل لم يشرب خمرا قط ولم يأت محرما قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله منذ خمسين سنة؟ فقال: من الرجل؟ إني أظن والله انه ناج لأن الله تعالى يقول: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَوْن عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾، قال جميل: أنا هو هذا الرجل، فقال له صاحبه: أتزعم ذلك وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة، فقال: أنا في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالتني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لريبة قط وإن كان أكثر ما كان مني إليها أني كنت آخذ يدها أضعها على قلبي فأستريح إليها. ثم أغمي على جميل، وأفاق، فأقبل على صاحبه، فقال له: هل لك في أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئا أعهده إليك. فقال ابن سعد: حبا وكرامة، قال: إذا أنا مت فخذ ثوبي هذا فاعزله جانبا، وكل شيء سواه لك، وارحل إلى رهط بثينة، فإذا صرت بمنازلهم، فاركب ناقتي هذه، ثم البس ثوبي ذاك، واشققه عليك، وصِحْ بهذه الأبيات:

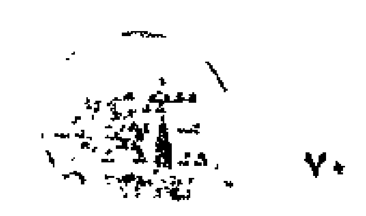
صرخَ النعيُّ وماكَنّى، بجميلِ ... وثَوَى بمصرَ ثَواءَ غير قُفولِ
صرخَ النعيُّ بفارسٍ ذى همةٍ ... حلو الشمائل للرجال قتولِ
قومى بثينةُ فاندُبى بعويلِ ... وابكى خليلَكِ دون كل خليلِ

وأغمى على جميل فمات. فواراه صاحبه التراب، ثم ركب ناقته، وسار بها حتى نزل في رهط بثينة، فشق ثوبه الذى عينه له، وصاح بالأبيات. وسمعته

بثينة، فصرخت صرخة تنبه عليها الحيّ، وسقطت لوجهها مغشيا عليها، واجتمع عليها الرجال والنساء يسألونها: ماالخبر؟ فأنشدتهن أبيات جميل، ورفعت صوتها بالعويل والبكاء، وأقام النساء معها ثلاثة أيام، وهي تبكي جميلا وتندبه، وتحزّن الرجال وبكوه وقالوا: يرحمه الله فإنه كان عفيفا صدوقا. ولما انتهت الأيام الثلاثة حلفت بثينة أن لا تكتحل بعده ولا تضع مشطا في رأسها ولا حلية ولا تفرق شعرها ولا تدهنه بطيب ولا تلبس قِناعا مصبوغا ولا ثوبا منقوشا. وبقيت تبكيه وتقول:

وإن سلوّى عن جميلٍ لساعةٌ — من الدهر ما حانتْ ولا حان حينُها
سواءٌ علينا يا جميل بن معمرٍ — إذا مُتَّ بأساءُ الحياة ولينُها

وما زالت تردد هذين البيتين، حتى قضى عليها اليأس والحزن، فلحقت به.



قَيس بن ذُرَيح ولُبْنَى

أول الهوى بين قيس ولبنى

كان قيس بن ذريح من قبيلة كنانة، وكانت عشيرته تنزل في ضواحي المدينة، واشتهر بأنه رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب، إذ أرضعته أمه في أثناء رضاعها له. وأول ما كان من حبه لبنى أنه مر يوما في بعض حاجته بخيام قبيلة كعب بن خزاعة، وكان الرجال غائبين عن الحيّ فوقف على خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية، فاستسقى ماء، فسقته، وخرجت إليه به، وكانت فتاة مديدة القامة حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه. وشرب الماء، فقالت له: أتنزل عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها، فذبح له شاة وأكرمه.

وانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حر لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وذاع بين الناس ثم أتاها يوما آخر وقد اشتد وجده بها، فسلّم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحفّت به، فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من حبها وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه.

زواج العاشقين

ذهب قيس إلى أبيه ذريح وأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه لبنى، فأبى عليه، وقال: يا بني، عليك بإحدى بنات عمك، فهن أحق بك. وكان ذريح كثير المال موسرا، فأحب أن لا يخرج ابنه إلى غريبة. ولما سمع قيس من أبيه ذلك ساءه ماخاطبه به. فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحب. فأتى رضيعه الحسين بن علي وابن أبي عتيق (حفيد أبي بكر الصديق)

وكان صديقه، فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبواه. فقال له الحسين: أنا أكفيك، فمشى معه إلى أبي لبنى. فلما بصر به أعظمه ووثب إليه، وقال له: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟ هلا بعثت إليّ فأتيتك، فقال: إن الذي جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطبا ابنتك لقيس بن ذريح، فقال: يا ابن رسول الله، ماكنا لنعصي لك أمرا وما بنا عن قيس رغبة. ولكنى أحب أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره، فإنا نخاف إن لم يَسْع أبوه في هذا أن يكون عارا وسُبّة علينا. فأتى الحسين ذريحا وقومه وهم مجتمعون، فقاموا إليه إعظاما له، وقالوا له مثل قول أبي لبنى. فقال الحسين لذريح: أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس. فقال ذريح: السمع والطاعة لأمرك.

وخرج ذريح مع الحسين في وجوه من قومه، حتى أتوا حيَّ لبنى، فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها، فزوجه إياها، وزفت إليه بعد ذلك. وأقاما معا سعيدين لا ينكر أحد منهما من صاحبه شيئا.

غيرة الأم

كان قيس أبر الناس بأمه ، فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه في نفسها وقالت لأبيه : لقد شغلته هذه المرأة عن برِّى . وانتظرت حتى مرض قيس مرضا شديدا ، فلما برئ من علته قالت لزوجها ذريح : لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا له، وقد حُرم الولد من هذه المرأة وأنت ذو مال فيصير مالك إلى أقربائك ، فزوِّجه بغيرها ، فلعل الله أن يرزقه ولدا، وألحت عليه في ذلك . فأمهل قيسا مدة حتى إذا خلا به يوما قال له : يا قيس إنك اعتللت هذه العلة ، فخفت عليك ، ولا ولد لك ولا لى سواك ، وهذه المرأة ليست بولود ، فتزوج إحدى بنات عمك ، لعل الله أن يهب لك ولدا تقرُّ به عينك وأعيننا ، فقال له قيس : لست متزوجا غيرها أبدا . فقال له أبوه : إن

في مالى سعة ، فتزوج معها أخرى ، فقال قيس : لا أسوءها والله بشيء أبدا ، فقال له أبوه : فإني أقسم عليك إلا طلقتها ، فأبى ، وقال : الموت والله أسهل عليّ من ذلك ، ولكني أخيرك خصلةً من ثلاث خصال ، قال أبوه : وما هي؟ قال : تتزوج أنت ، فلعل الله أن يرزقك ولدا غيرى ، قال : ما عندى فضلة لذلك . قال قيس لأبيه : فدعني أرتحل عنك بلبنى واصنع ما كنت صانعا لو مت في علتي. قال أبوه : ولا هذه . قال قيس : فادع لبنى عندك وأرتحل عنك ، فلعلي أسلوها ، فإني ما أحب بعد أن تكون نفسي طيبة أنها في خيالى : فقال أبوه : لا أرضى إلا أن تطلقها ، وحلف لا يكنّه (لا يستره) سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى. وكان ذريح يخرج ، فيقف في حر الشمس ، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه ، فيظله بردائه ويصلي هو بحر الشمس ، حتى يسقط الظل، فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه ، وتقول له : يا قيس لا تطع أباك ، فتهلك وأهلك معك ، فيقول : ما كنت لأطيع أحدا فيك أبدا.

طلاق لبنى

مازال أبو قيس وأمه يلحان عليه في طلاق لبنى، حتى استجاب إليهما على كره منه، ولم يكد يصنع حتى طار عقله ولحقه مثل الجنون، وأخذ الشعر ينفجر على لسانه يعبر به عن لواعج قلبه، يتأسف ويبكي أشد بكاء، ويقول:

يقولون لُبْنَى فتنةٌ، كنتَ قبلها ... بخيرٍ فلا تَنْدَمْ عليها وطلِّقِ
وَدِدْتُ وبيتِ الله أنّي عَصَيْتهم ... وحُمِّلت في رضوانِها كلَّ مُوبِقِ
وكُلِّفتُ خوضَ البحرِ والبحرِ زاخرٌ ... أَبيتُ على أثْباجِ موجٍ مُغرِّقِ
كأنّي أرى الناسَ المحبِّين بعدها ... عُصارةَ ماءِ الحنظلِ المُتَفلِّقِ
وتُنكرُ عيني بعدها كلَّ منظرٍ ... ويكره سمعي بعدَها كلَّ منطقِ

ولما علمت لبنى بخبر طلاقها من قيس أرسلت إلى أبيها فاعلمته الخبر، فأقبل بهودج على ناقه وبإبل تحمل أثاثها ورأى ذلك قيس فأقبل على جاريتها، فقال: ويحك ما دهاني فيكم، فقالت له: لا تسألني وسل لبنى، فذهب ليلم بخبالها فيسألها، فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من عشيرته فقالت له: ما لك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل، وهذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا، فسقط مغشيا عليه لا يعقل، ثم أفاق وهو ينشد:

وإني لَمُفْنٍ دمعَ عَيْنَيَّ بالبُكا حِذارَ الذى قد كان أو هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهْو بائن
وما كنتُ أخشى أن تكون منيّتى بكفَّيْكِ إلاّ أن ما حانَ حائنُ

وسقط غراب قريبا منه، فجعل ينعق مرارا، فتطيّر منه أشد تطير، ولم يلبث أن قال:

لقد نادى الغرابُ ببَيْنِ لُبْنَى فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال: غدا تباعَدُ دارُ لبنى وتنأى بعد وُدٍّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غرابٍ وكان الدهرَ سعيُك فى اغترابِ

وأزف وقت الرحيل، ورآها وقومها يدخلونها هودجها فجعل يبكي وينشج أحرّ نشيج، ويقول:

ألا يا غرابَ البَيْنِ ويحك نَبِّنى بعلمك من لبنى وأنت خبيرُ
فإن أنت لم تخبر بما قد علمته فلا طرتَ إلا والجناحُ كسيرُ
ودُرْتَ بأعداءٍ حبيبُك فيهمُ كما قد ترانى بالحبيب أدورُ

ولما ارتحل قومها اتبعها مليا، ثم وقف لما يعلم من أن أباها سيمنعه من المسير معها، وأخذ ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه، وهو ينشد:

بانتْ لبنى فأنت اليوم متبولُ والرأى عندك بعد الحزم مخبولُ
أستودع الله لبنى إذ تفارقنى بالرغم منى وقول الشيخ مفعولُ

وكر راجعا، وفى أثناء رجوعه نظر إلى أثـر خف بعيرهـا فـأكب عليـه يقبلـه ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها. فلامه أهله على ذلك وعنفوه على تقبيـل التراب، فقال:

وما أحببتُ أرضكمُ ولكن أقبّل إثْرَ من وطئ الترابا
لقد لاقيت من كلفى بلبنى بلاء ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لبنى عَييتُ فما أطيق له جوابا

ولما جنَّ عليه الليل وانفرد وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار وجعل يتملمـل فيه تململ الملدوغ ثم وثب حتى أتى موضع خبائهـا، فجعـل يتمـرغ فيـه ويبكـى ويقول:

بِتُّ والهمُّ يا لُبَيْنَى ضجيعى وجرتْ–مذ نأيتِ عنى–دموعى
وتنفَّسْتُ إذ ذكرتك حتى زالت اليومَ عن فؤادى ضلوعى
يا لُبَيْنَى فدتْكِ نفسى وأهلى هل للدهرِ مضى لنا من رجوع

وأصبح فخرج متوجها نحو الطريق الذى سلكته يتنسَّم روائحها، فسنحت له ظبية فقَصدها، فهربت منه، فأنشأ يقول:

ألا يا شبه لبنى لا تُراعى ولا تتيمَّمى قُلَل القِلاعِ
وأصبحتُ الغداة ألوم نفسى على شئ وليس بمستطاع
وقد عشنا نلذ العيش حينا لو ان الدهر للإنسان راعِ
ولكنَّ الجميع إلى افتراقٍ وأسبابُ الحتوفِ لها دواعِ

وظل يعاتب نفسه فى طاعته أباه فى طلاق لبنى، ويقـول: مـا كـان علـى لـو اعتزلته وأقمت فى حيها أو فى بعض بوادى العرب أو عصيته فلـم أطعـه، هـذه

جنايتي على نفسي، وها أنذا ميت فمن يرد روحي إلىّ. وكلما قرّع نفسه وأنّبها بلون من التقريع والتأنيب بكى أحر بكاء وألصق خده بالأرض ووضعه على آثارها، وقال:

وكلّ مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هَيِّنة الخطْبِ

غربان النوى

ظلت لبنى حزينة على قيس بعد رحيلها، لا يهنأ لها عيش، وكانت ما تزال تسأل عنه من يلم بدارها من عشيرته فيصفون لها تغير حاله وما عليه من الهوى والصبابة بها، فكانت تستنشدهم أشعاره، فينشدونها، وهي تبكي وتنوح على مصيرها ومصيره، وأنشدت ذات يوم قوله في غراب البين:

ألا يا غرابَ البَيْنِ قد طِرتَ بالذى أحاذِر من لُبْنى فهل أنت واقعُ

فأمرت غلاما لها أن لا يرى غراب بينٍ إلا يصيده، وهو غراب أسود صغير، فكان ما يزال يأتيها ببعض الغربان فتتناولها وتضربها، وتنشد البيت.

وأتاها غلامها يوما بأربعة غربان، فلما رأتهن بكت وصرخت وكتفتهن وجعلت تضربهن بالسوط، ثم أمسكت بغراب منهن، فنتفت ريشه، وهي تصيح:

لعمرى لقد صاح الغراب ببينهم فأوجع قلبي بالحديث الذى يبدى
فقلت له: أفصحتَ، لاطِرتَ بعدها بريشٍ فهل للقلب ويحك من رَدِّ

ثم أخذت الثاني فشدت في رجليه خيطين وباعدت بينهما ، وجعلت تقول له: أتبكي بلا دمع وتفرق بين الألاف بلا حق ، فمن أحق بالقتل منك ، وأنشدت:

ظعن الذين فراقهم أتوقَّع وجرى ببينهم الغرابُ الأبْقَعُ
فزجرتُه أن لا يفرِّخَ بَيْضَهُ أبــــداً ويصبحَ واقعاً يتفجّع
إن الذين نعبتَ لى بفراقهم هُم أسهدوا ليلى التمام فأوجعوا

ثم أخذت الثالث فنتفت ريشه، حتى كأن لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربته حتى مات، وصاحت تنشد:

ألا يا غرابَ البين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فبيِّن لنا ما قلت إذ أنت واقعٌ وبيِّن لنا ما قلت حين تطير
فإن يك حقا ما تقول فأصبحتْ همومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسورا عديما لناصرٍ كما ليس لى من ظالمىّ نصير

وكسرت جناحه، وأمرت بالرابع فأخذت تضربه حتى مات وأنشدت بأعلى صوتها قول قيس:

لقد نادى الغرابُ ببَيْن لُبْنَى فطار القلب من حَذَرِ الغرابِ

فدخل أبوها فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما دعاك إلى ما أرى؟ قالت: دعاني أن ابن عمي وحبيبي قيسا دعا عليهن بالوقوع فلم يقعن. فقال إنك وابن عمك تظلمان الغربان، ألم تسمعى قول القائل:

نعبَ الغرابُ برؤية الأحبابِ فلذاك صرت أحبُّ كلَّ غرابِ

قالت: ليس البيت يا أبى كما أنشدته، وإنما هو

نعَب الغرابُ بفرقةِ الأحبابِ فلذاكَ صِرتُ عدوَّ كلِّ غرابِ

فآليت لا أظفر بغراب إلا قتلته. فأظهر أبوها لها الغضب، وتركها وذهب إلى أمها فشكا لها سوء فعلها وقولها وما تشعر به من حسرة ولوعة.

تأججت نيران الغرام في نفس قيس بن ذريح وقلبه، وكأنما كان طلاقه لبنى وفراقها له الشرارة التي اندلعت منها هذه النيران، فهي لا تخبو في فؤاده أبدا، مهما بللتها دموعه، وقد انطلق يصيح:

أحبُّكِ أصنافاً من الحبِّ لم أجدْ ... لها مَثَلاً في سائر الناس يُوصَفُ
فمنهنَّ حبٌّ للحبيب ورحمةٌ ... بمعرفتي منه بما يتكلَّفُ
ومنهن أن لا يَعْرِضَ الدَّهرَ ذكرُها ... على القلب إلا كادتِ النفس تَتْلَفُ
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ ... وحبٌّ لدى نفسي من الرُّوحِ ألطفُ

وظلت ذكرياته العذبة معها لا تبرح ذاكرته، فهي لا تختفي من أمام ناظريه، ولا تختفي عيناها الساحرتان حتى في النوم وإنه لينشد:

وإني لأهْوَى النَّومَ في غير حِينه ... لعلَّ لقاءً في المنام يكونُ
تُحدثُني الأحلامُ أنيِّ أراكمُ ... فيا ليتَ أحلامَ المنام يقين
شهدتُ بأني لم أَحُلْ عن مَوَدَّةٍ ... وأنِّي بكم لو تَعْلمين ضَنين
وأن فؤادي لا يَلين إلى هوًى ... سواكِ وإن قالوا بَلَى سيَلين

وظل دائم التطلع إلى أيامه الماضية معها، وكان يتحسر على ما فرط من طلاقها وفراقها ويقول:

أتبكي على لُبْنى وأنت تركتَها ... وكنتَ كآتٍ حَتْفَه وهْو طائعُ
كأن بلادَ الله ما لم تكن بها ... وإن كان فيها الناسُ قفرٌ بلاقعُ
ألا إنما أبكي لما هو واقعٌ ... فهل جزعي من وشك ذلك نافعُ
وما كلُّ ما منَّتك نفسُك خالياً ... تُلاقِي ولا كلَّ الهوى أنت تابعُ
نهارِي نهارُ الواهين صبابةً ... وليليَ تنبو فيه عنِّي المضاجعُ
وقد كنتُ قبل اليومِ خِلْواً وإنما ... تُقَسَّم بين الهالكين المَصَارِعُ

خروج قيس إلى ديار لبنى

ولما أضنى الحب قيسا رق له بعض رفاقه القدماء، فواعـدوه أن يخرجـوا معـه إلى ديارها لعله يحظى بلقائها، فخرج معهم، وهو ينشد:

لقد عذّبْتَني يا حُبَّ لُبْنَى فقَعْ إما بموتٍ أو حياةِ
فإن الموت أَرْوَحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشّتاتِ

ومازالوا يجدُّون في السير حتى انتهوا إلى ديارهـا، فأقاموا معه حتـى لقيهـا، فلما وقعت عينه عليها خرَّ مغشيا عليه، ولما أفاق أنشأ يقول:

الله يدرى وما يدرى به أحدٌ ماذا أُجَمْجِم من ذكراكِ أحيانا
لا بارك الله فيمن كان يحسَبُكم إلاّ على العهد حتى كان ما كانا
إنْ تَصْرِمى الحبلَ أو تُمْسى مُفارِقةً فالدهر يُحْدث للإنسان ألوانا

ثم ودعها ومضى مع رفاقه.

لقاء ثان فى الحج

وأشار قوم على قيس بالحج لعله يسلو لبنى، فحـج واتفق أن حجَّت هـى الأخرى فى تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها، فدهش وبقى واقفا مكانـه ومضت لسبيلها، ثم أرسلت إليه بالمرأة تبلغه السلام وتسأله عن خبره، فوجدتـه جالسا وحده يبكى وينشد:

ويومَ مِنًى أعرضتِ عنى فلم أقل بحاجة نفسٍ عند لُبْنَى مقالُها
وفى اليأس للنفس المريضة راحةٌ إذا النفسُ رامتْ خُطّةً لا تنالها

ودخلت المرأة خباءه وجعلت تحدثه عن لبنى ويحدثها عن نفسـه مَلِيًّـا، ولم تعلمه أن لبنى أرسلتها إليه، فسألها أن تبلغها عنه السلام، فامتنعت عليه، فأنشأ يقول:

إذا طلعتْ شمسُ النهارِ فسلّمي　　فآيةُ تسليمي عليكِ طلوعُها
بعشر تحيّاتٍ إذا الشمسُ أشرَقتْ　　وعشرٍ إذا اصفرّتْ وحانَ رجوعُها
ولو أبلغتْها جارةٌ قوليَ اسلَمي　　بكتْ جَزَعاً وارفضّ منها دموعُها
وبانَ الذي تُخفِي من الوجد في الحَشا　　إذا جاءها عنّي حديثٌ يَرُوعُها

وقضى الناس حجهم وانصرفوا ولم يأته رسول منها، لأن قومها رأوه وعلموا به، فخشيت أن تراسله، فقال:

تُمنّيَنني نَيْـــلاً وتَلْوِينني بهِ　　فنفسيَ شوقاً كلَّ يوم تَقَطَّعُ
وقلبكِ قَطُّ ما يَلِينُ لما يَرى　　فواكبدي قد طال هذا التضرُّع
أخُبِّرتِ أنّي فيك مَيِّتُ حسرتي　　فما فاض من عينيكِ للوجد مَدْمَع
ولكن لَعَمْري قد بكيتكِ جاهداً　　وإن كان دائي كلُّه منك أجمع
وما غَشِيتْ عينيكِ من ذاك عَبْرةٌ　　وعيني على ما بي بذكْراكِ تدمَع

وبلغتها الأبيات فجزعت جزعا شديدا وبكت بكاء كثيرا. ثم خرجت إليه ليلا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقي عليك وأخشى أن يقتلك قومي، فأنا أتحاماك لذلك، ولولا هذا ما افترقنا، وودعته وانصرفت.

مرض قيس

عاد قيس إلى قومه بعد رؤيته لبنى في الحج وقد سالت نفسه حسرات، فأنكروه وسألوه عن حاله، فلم يخبرهم ومرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت، فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه وناشدوه الله، فقال: ويحكم أترونى أمرضت نفسي أو وجدت لها سلوة لقد اخترت الهم والبلاء وهذا ما اختاره لي أبواى وابتلياني به.

ولما رأت أمه تماديه في مرضه وتعلقه بلبنى أرسلت إليه بفتيات من عشيرته

يعبن عنده لبنى ويلمنه على جزعه وبكائه فأتينه واجتمعن حواليه، وجعلن يمازحنه ويعبن لبنى عنده، فلما أطلن فى ذلك أقبل عليهن وقال:

يَقَرُّ بعينى قربُها ويَزِيدُنى بها كَلَفاً مَنْ كان عندى يَعِيبُها
وكم قائلٍ قد قال تُبْ فعصَيْتُه وتلك لعَمْرى توبةٌ لا أتوبها
فيا نفسُ صبراً لستِ واللهِ فاعلمى بأوّلِ نفسٍ غاب عنها حبيبُها

فانصرفن عنه إلى أمه فأيأسنها من سلوته.

وصنع أبوه صنيع أمه، فسأل بعض فتيات من الحيّ أن يَعْذُلنه ويحدثنه لعله يتسلى عن لبنى أو يتعلق بإحداهن، ففعلن ذلك. ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأطلن السؤال عن سبب علته فقال:

عِيدَ قيسٌ من حبِّ لُبْنى ولُبنى داءُ قيسٍ والحبُّ داءٌ شديدُ
وإذا عادنى العوائدُ يوماً قالت العينُ لا أرَى من أُريدُ
ليت لُبْنَى تَعُودنى ثم أَقْضِى إنها لا تعود فيمن يعودُ
وَيْحَ قيسٍ لقد تضمَّن منها داءَ خَبْلٍ فالقلبُ منه عميدُ

فقال له الطبيب: منذ كم هذه العلة؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت، فقال وهو يبكى متحسرا:

تعلّق رُوحى روحَها قبل خَلْقِنا ومن بعدِ ما كنا نِطافاً وفى المهدِ
فزاد كما زِدنا فأصبح نامياً وليس إذا مُتنا بُمنْصَرِمِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرُنا فى ظُلْمةِ القبرِ واللَّحْدِ

فقال له الطبيب: إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوئ والمعايب وما تعافه النفس من بنى آدم، فإن النفس تنفر حينئذ وتسلو ويخف ما بها، فقال يجيبه:

إذا عِبْتُها شبَّهتها البدرَ طالعا وحسبُكَ من عيبٍ لها شَبَهُ البدر
لقد فُضِّلتْ لبنى على الناس مثلما على ألف شهر فُضِّلتْ ليلةُ القَدْرِ

ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة فأنّبه ولامه وقال له: يا بني، الله الله في نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا، فأنشد:

وفي عُرْوَةَ العُذْرىّ إن متُّ أسوةٌ وعمرو بن عَجْلانَ الذى قتلتْ هندُ
وبى مثلُ ما ماتَا به غيرَ أننى إلى أجلٍ لم يأتِنى وقتُه بعدُ
هل الحبُّ إلا عَبْرةٌ بعد زفرةٍ وحَرٌّ على الأحشاء ليس له بَرْدُ
وفيضُ دموعٍ تَستهلُّ إذا بدا لنا عَلَمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

زواج قيس بأخرى

ولما طال على قيس مرضه أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله يسلو بها عن لبنى فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لقد خِفْتُ أن لا تَقْنَع النفسُ بعدها بشيءٍ من الدنيا وإن كان مَقْنَعا
وأزجُرُ عنها النفسَ إذ حِيل دونها وتأبَى إليها النفسُ إلا تَطلُّعا

فأعلمهم أبوه بما رد عليه، قالوا: فأمره بالمسير في أحياء العرب والنزول عليهم، فلعل عينه أن تقع على فتاه تعجبه، فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار حتى نزل بحي من قبيلة فزارة، فرأى جارية حسناء قد حسرت قناع حرير عن وجهها وهي كالبدر ليلة تمامه، فقال لها: ما اسمك يا جارية، قالت: لبنى، فسقط على وجهه مغشيًا عليه، فنضحت على وجهه ماء وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون! فأفاق، فسألته من هو فعرفها بنفسه، فقالت: لقد علمت أنك قيس، ولكني نشدتك با لله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا، وقدمت إليه طعاما، فأصاب منه قليلا. وركب فأتى على أثره أخ لها كان غائبا،

فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب ناقته حتى رده إلى منزله، وحلف عليه ليقيمن عنده شهرا، فقال له: لقد شققت على ولكنى سأتبع هواك والفتى الفزارى يزداد عجبا بحديثه وعقله وشعره، فعرض عليه الصِّهْر، فقال له: يا هذا إن فيك لرغبة، وإنى لمعجب بأختك، ولكنى فى شغل لا يُنْتَفع بى معه.

ولم يزل الفتى الفزارى يعاوده فى طلب مصاهرته والحى يلومونه ويقولون له قد خشينا أن يصير علينا فعلك سُبَّةً، فقال: دعونى، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام، فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبين الفتى على أخته المسماة لبنى، وقال له الفتى: أنا أسوق عنها صداقها (المهر) فقال قيس بن ذريح: أنا والله يا أخى أكثر قومى مالا، فما حاجتك إلى تكلف هذا، أنا سائر إلى قومى وسائق إليها المهر.

وتوجه قيس إلى أهله وأعلم أباه بالذى كان منه، فسرّه، وساق له مهرا كبيرا فرجع إلى الفزاريين وأقام عندهم حتى أدخلت عليه زوجته. فلم يروه هشّ إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها. وأقام على ذلك أياما كثيرة. ثم أعلمهم أنه يريد الرحيل إلى قومه والبقاء عندهم أياما، فأذنوا له فى ذلك.

ومضى قيس إلى المدينة وكان له صديق بها من الأنصار، فأتاه، فأعلمه الأنصارى أن خبر تزويجه بلغ لبنى فغمّها وقالت: إنه لغدّار، ولقد كنت أمتنع من إجابة قومى إلى تزويجى فأنا الآن أجيبهم ما دام قد نكث الوعد ونقض العهد.

زواج لبنى

كان أبو لبنى شكا قيسا إلى معاوية، وقال له إنه يتعرض لابنته بعد طلاقها فكتب معاوية إلى والى المدينة — كما يقال — أن يهدر دمه إن تعرض لها أو

بها وأن يشتدّ في ذلك، وأمر أباها أن يزوجها رجلا سماه له من أهل المدينة، فوجهت لبنى رسولا إلى قيس تعلمه ما جرى وتحذره، فقال:

فإن يحجُبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أمير
فلن يمنعوا عينيّ من دائم البُكا ولن يُذهبوا ما قد أجَنّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ومن حُرَقٍ تعتادني وزفير
ومن ألمٍ للحبّ في باطن الحشا وليلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصير

وعرض أبو لبنى عليها الزواج بالرجل الذى سماه معاوية، فلم تمتنع، لما علمت من زواج قيس، فزوجها أبوها منه، وزفت عليه وكان نساء الحي يتغنين ليلة زفافها:

لُبَيْنَى زوجُها أصبـــــحَ لا حُرٌّ يوازيه
له فضلٌ على الناس بما باتت تُناجيه
وقيسٌ ميّتٌ حيٌّ صريعٌ في بَواكيه
فلا يُبْعِدْه الله وبُعْــداً لنَواعيه

وسمع بذلك كله قيس فجزع جزعا شديدا، وركب من فوره حتى أتى ديار قومها، فناداه النساء: ما تصنع الآن ها هنا، وقد رحلت لبنى مع زوجها، وأصبح بينكما حجاب صفيق، فبكي وأنشد:

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإنَّ نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ونُبصر قَرْنَ الشمسِ حين تزولُ
وأرواحُنا بالليل في الحيِّ تلتقي ونعلم أنّا بالنهار نَقيل
وتجمعُنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا سماءٌ نرى فيها النجوم تجول

وجعل الفتيان يعارضونه بأن لبنى تزوجت وانتقلت مع زوجها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خبائها، فنزل عن راحلته، وجعل يتمرغ فيه ويضع خده على

ترابه ويبكى أحرّ بكاء، ثم قال:

إلى الله أشكو فَقْدَ لُبْنى كما شكا　　إلى الله فَقْدَ الوالدينِ يتيمُ
يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمُه　　نَحيلٌ وعهدُ الوالدين قديم
تهيَّضَنى من حبِّ لبنى علائقٌ　　وأصنافُ حُبٍّ هَوْلُهن عظيم
ومن يتعلّق حبَّ لبنى فؤادُه　　يَمُتْ أو يَعِشْ ما عاش وهو كَلِيمُ

رسول من لبنى

ولما سمعت لبنى بما حدث من قيس بن ذريح في ديار قومها بعد زواجها أرسلت إليه رسولا وقالت له: استنشده شعره، فإن سألك عن نسبك فانتسب له في بني خزاعة، فإذا أنشدك شعرا فيَّ، فقل له: لم تزوجت بعدها حتى أجابت إلى أن تتزوج بعدك؟ واحفظ ما يقوله لك حتى ترده عليّ. فأتاه الرسول فسلَّم وانتسب خزاعيا وذكر أنه من أهل الشام واستنشده، فأنشده قوله:

تكاد بلادُ الله يا أُمَّ مَعْمَرٍ　　بما رَحُبَتْ يوماً عليَّ تَضيقُ
تكذِّبنى بالودِّ لُبْنَى وليتَها　　تُكلَّف منِّى مثلَه فتذوقُ
وإنّى وإن حاولت صَرْمى وهِجرتى　　عليكِ من احداثِ الرَّدَى لشفيق
ولم أرَ أياماً كأيّامنا التى　　مَرَرْنَ علينـا والزمان أنيق
وحدَّثْتنى يا قلبُ أنكَ صابرٌ　　على البين من لُبْنَى فسوف تذوق
فَمُتْ كمداً أو عِشْ سقيماً فإنما　　تكلّفنى ما لا أراكَ تطيق
وإن تك لما تَسْلُ عنها فإنّنى　　بها مُغْرَمٌ صَبُّ الفؤاد مَشُوق
سعَى الدهرُ والواشون بينى وبينها　　فقُطِّع حبلُ الوصل وهْو وَثيق

فقال له الرجل: فلم تزوجت بعدها؟ فأخبره الخبر وحلف له أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التى تزوجها وأنه لو رآها فى نسوة ما عرفها وأنه ما مدَّ يدا

إليها ولا كلَّمها. فقال له الرجل: فإني جار لها، وإنها من الوجد بك على حال قد غنى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلح حالها بك، فحمِّلني إليها ما شئت أؤديه إليها، فقال قيس له: تعود إليَّ إذا أردت الرحيل، فعاد إليه لما عزم على الرحيل، فقال: تقول لها:

ألا حَيِّ لُبْنَى اليومَ إن كنتَ غاديا	وأَلِمْ بها من قبلِ ألا تَلاقيا
وإن أَحْيَ أو أهلك فلستُ بزائلٍ	لكم حافظاً ما بَلَّ ريقٌ لسانيا
أصونُكِ عن بعض الأمور مِضَنَّةً	وأخشَى عليكِ الكاشحِين الأعاديا
تَسَاقطُ نفسي حِين ألقاكِ أنفُساً	يَرِدْنَ فما يَصْدُرْنَ إلا صَواديا
وبين الحشا والنَّحْر منِّي حرارةٌ	ولوعَةُ وجدٍ تترك القلب ساهيا
جَزِعتُ عليها لو أرى لِيَ مجزعاً	وأفنيتُ دمعَ العين لو كان فانيا
تمرُّ الليالي والشهور ولا أرَى	وَلُوعِي بها يزدادُ إلاَّ تماديا
ألا إنها صَدَّتْ وحُمِّلْتُ من هَوًى	لها ما يَؤود الشامخاتِ الرواسيا

لقاء على غير وعد

أخذ قيس بعض إبل له، وتوجه بها إلى المدينة ليبيعها، ويقضي بثمنها بعض حوائجه، وقدم المدينة، وبينما هو يعرض إبله إذ ساومه زوج لبنى فى ناقة من نوقه وهما لا يتعارفان، فباعه إياها، فقال له إذا كان غد فأتني في داري، فاقبض الثمن، ووصف له داره. ومضى زوج لبنى إليها فقال لها: إني ابتعت ناقة من رجل من أهل البادية وهو يأتينا غدا ليقبض ثمنها، فأعدِّي له طعاما، ففعلت.

فلما كان من الغد جاء قيس فصوَّت بالخادم: قولي لسيدك: صاحب الناقة بالباب. فعرفت لبنى صوته، فلم تقل شيئا، فقال زوجها للخادم: قولي له: ادخل، فدخل، فجلس. فقالت لبنى للخادم: قولي له يا فتى ما لي أراك أشعث أغبر؟ فقالت له ذلك، فتنفس، ثم قال لها: هكذا تكون حال من فارق الأحبة

واختار الموت على الحياة وبكى. فقالت لها لبنى: قولى له: حَدِّثْنا حديثك. فلما ابتدأ يحدث به كشفت لبنى الحجاب، وقالت له: حسبك قد عرفنا حديثك.

وبهت قيس ساعة لا يتكلم، ثم انفجر باكيا ونهض فخرج، فناداه زوج لبنى، ويحك ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك، وإن شئت زدناك. فلم يرد عليه، وخرج فركب بعيره ومضى. وقالت لبنى لزوجها: ويحك هذا قيس بن ذريح، فقال لها ما عرفته. وجعل قيس يبكى فى طريقه، ويندب نفسه، وينشد:

أتبكى على لُبْنَى وأنت تركتها ... وكنتَ عليها بالمَلا أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا بلُبْنَى تقلَّبت ... علىَّ فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان فيها للأمانة موضعٌ ... وللروح مُرتادٌ وللعين مَنْظَر
وللحائم العطشان رِىٌّ بريقِها ... وللمَرِح المختال خمرٌ ومُسْكِر
كأنِّىَ فى أرجوحةٍ بين أحْبُلٍ ... إذا ذُكْرَةٌ منها على القلب تَخْطُرُ

زوج لبنى يؤنبها

اشتهر أمر قيس في المدينة وغنَّى فى شعره المغنون من أمثال معبد ولم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بشعره فاطربه وحزن لقيس مما به. وجاء لبنى زوجها فأنَّبها على ذلك وعاتبها، وقال: قد فضحتنى بذكرك، فغضبت، وقالت: يا هذا إنى والله ما تزوجتك رغبة فيك ولا فيما عندك ولا دلَّس أمرى عليك أحد، ولقد علمت أنى كنت تزوجته قبلك وأنه أكره على طلاقى. والله ما قبلت التزويج إلا بعد أن أهدر السلطان دمه إن ألَمَّ بحينا، فخشيت أن يحمله ما يجد من حبه على المخاطرة، فيقتله أهلى، فتزوجتك. وأمرك الآن إليك، ففارقنى إن شئت. فامسك عن جوابها ولام نفسه، وجعل يأتيها بجوارى المدينة يغنينها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك، فلا تزداد إلا تماديا وبعدا، ولا تزال تبكى كلما سمعت شيئا من شعره أحرَّ بكاء وأشجاه.

قيس يعود إلى المدينة

لما عاد قيس إلى قومه بعد ما كان من لقائه للبنى ، وتركه لثمن ناقته دون أن يقبضه اشتد به الحنين إليها، وعاوده المرض الذى كان ألم به، وأصبح لا يفيق من غشيانه وخفقاته، فكانت فتيات الحي يعذنه ويعذلنه، فيقول:

إذا أمرتْني العاذلاتُ بهجرها أبتْ كَبِدٌ عما يَقُلْنَ صديعُ
وكيف أُطِيع العاذلاتِ وذُكْرها يؤرِّقني والعاذلاتُ هجوعُ

ولما طالت علته قال لـه أبـوه: إنـى لأعلـم أن شفاءك فـى القـرب مـن لبنـى فارحل إلى المدينة، فرحل إليها، وكان يعرف فيها جارية من الموالى تزوجت بسيد من سادة قريش، وكانت من أظرف النساء وأكرمهن، وكانت تسمى بركة، فأتى دار الضيافة التي لزوجها ، فوثب غلمانها إلى رحل قيس ليحطوه، فقال: لا تفعلوا فلست نازلا إلا أن ألقى السيدة بركة، فإنى قصدتها فى حاجة، فإن وجدت لها عندها موضعا نزلت وإلا رحلت، فأخبروها، فخرجت إليه ورحبت به وقالت: حاجتك مقضيه كائنة ما كانت، فانزل ، فنزل ودنا منها فقال: أنا قيس بن ذريح، قالت: حياك الله، إن ذكرك لجديد عندنا فى كل وقت، اذكر حاجتك ، قال: حاجتى أن أرى لبنى نظرة واحدة ، قالت: ذلك لك عليّ. فنزل بهم وأقام عندها وأخفت أمره وزارت لبنى مرارا وتلطفت لها بالهدايا ، ثم قالت لزوجها: أخبرنى عنك هل أنت خير من زوجى؟ فقال: لا، قالت فلبنى خير منى؟ قال: لا، قالت: فما بالى أزورها ولا تزورنى، قال: ذلك إليها، فسألتها الزيارة وأعلمتها أن قيسا فى ضيافتها وأن كل مناه أن يراها نظرة واحدة، فأسرعت إلى ذلك وأتتها. فلما رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان. ثم جعلت تسأله عن خبره وعلته فيخبرها، ويسألها فتخبره ثم قالت له: أنشدنى ما قلت فى علتك الأخيرة، فأنشدها قوله:

أعالجُ من نفسي بقايا حُشاشةٍ على رَمقٍ والعائداتُ تعودُ
فإن ذُكرتْ لبنى هَشَشْتُ لذكرها كما هشَّ للثَّدْيِ الدّرور وليدُ
أجيبُ بلُبْنى من دعاني تجلُّداً وبي زَفَراتٌ تنجَلي وتعود
تُعيد إلى روحي الحياةَ وإنني بنفسيَ لو عاينتِني لأجود
ألا ليت أياماً مضيْنَ تعود فإنْ عُدْنَ يوماً إنني لسعيدُ
كأنّيَ من لُبْنَى سليمٌ مُسَهَّدٌ يَظَلُّ على أيدي الرجال يَميدُ
فلا اليأس يُسْليني ولا القربُ نافعي ولبنى مَنوعٌ ما تكاد تجود
رمَتْني لُبَيْنَى في الفؤاد بسهمها وسهمُ لبينى للفؤاد صَيُود
سلاَ كُلُّ ذي شَجْوٍ علمتُ مكانه وقلبي للبنى ما حَيِيتُ وَدود
وقائلةٍ قد مات أَوْ هو ميِّتٌ وللنفس مني أن تَفيض رصيدُ

وعاتبته على تزوجه، فحلف أنه لم ينظر إلى من تزوجها ملء عينيه ولا دنا منها فصدقته. ولم يزل يومه معها يحدثها، ويشكو إليها أعفَّ شكوى وأكرم حديث حتى أمسى. فانصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد فلم ترجع. وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا. فكتب الأبيات التالية في رقعة، وأرسل بها إليها:

بنفسيَ مَنْ قلبي له الدّهرَ ذاكرٌ ومَنْ هو عنّي مُعرضُ القلبِ صابرُ
ومَنْ حُبُّه يزداد عنديَ جِدَّةً وحُبِّي لديه مُخْلَقُ العهدِ داثرُ

وبلغ أهل زوجته الثانية خبره وإلمامه بلبنى، فكاتبوه في ذلك وعاتبوه. فقال للرسول: قل لأخيها: ماغررته من نفسي، ولقد أعلمته أني مشغول عن كل أحد، وقد جعلت أمر أخته إليه، فليمض فيه من حكمه ما يرى. فتكرَّم الفتى عن أن يفرق بينهما، ولم تلبث أن ماتت.

لبنى تعود إلى قيس

اجتمع الحسين بن علي بن أبي طالب وأخوه الحسن وابن أبي عتيق وجماعة

من قريش وتواعدوا على يوم يذهبون فيه إلى زوج لبنى، لعله يردها على قيس. فلما رآهم أعظم مصيرهم إليه وأكبره، فقالوا: لقد جئناك بأجمعنا في حاجة، فقال هي مقضية كائنة ما كانت من ملك أو مال أو أهل. فقالوا: تهب لنا زوجتك لبنى وتطلقها. قال: فإني أشهدكم أنها طالق ثلاثا، فعوضوه منها مالا كثيرا. ثم سأل القوم أباها فردها على قيس. ومازالت عنده حتى ماتت، وتبعها يوم موتها يندبها ويبكيها ويقول:

ماتت لُبَيْنى فموتُها موتي   هل تنفعنْ حسرتي على الفَوْتِ
وسوف أبكي بكاءَ مكتئبٍ   قضى حياةً وجداً على مَيْتِ

ثم أكبَّ على القبر يبكي حتى أغمي عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلا لا يفيق ولا يجيب مكلما ثلاثة أيام حتى مات، فدفن بجوارها.

عُرْوَة بن حِزام وعَفْراء

بدء الحب

كان عروة بن حزام من بني عذرة، مات أبوه وعمره أربع سنوات، فكفله عمه عقال بن مهاصر، فنشأ في حجره مع ابنته عفراء يلعبان ويكونان معا، حتى ألف كل منهما صاحبه إلفا شديدا، وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفه لابنته: أبشر، فإن عفراء زوجتك إن شاء الله. فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال فأتى عمة لها يقال لها هند، وقال لها في بعض ما قال: يا عمة إني لمكلمك وإني لمستحٍ منك، ولكني لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه، فاذهبي إلى عمي عقال واخطبي لي عفراء منه. فذهبت العمة إلى أخيها، فقالت له: يا أخي قد أتيتك في حاجة أحب أن تحسن فيها الرد، فإن الله يأجرك لصلة رحمك بي على ما أسألك، فقال لها: قولي فلن تسألي حاجة إلا وفيتها لك. فقالت: تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء، فقال: ما بي عنه مذهب، ولا هو شخص يرغب عنه، ولا بي عنه رغبة، ولكنه ليس بذي مال، وليس هناك وجه للسرعة، فلنترك الأمر حتى يصيب بعض المال.

وكانت أم عفراء سيئة الرأي في عروة، وكانت تريد لابنتها رجلا موسرا ذا مال، وكان يطمعها في أمنيتها أن ابنتها على حظ وافر من الحسن والجمال. وبلغ عروة أشده، وعرف أن شابا موسرا من ذوي قرباه يريد أن يخطبها لنفسه، فأتى عمه، وقال له: يا عم قد عرفت حقي وقرابتي وأني ولدك وربيت في حجرك وقد بلغني أن شخصا جاءك يخطب عفراء، فإن أسعفته برغبته قتلتني، فأنشدك الله ورحمي وحقي، فرقّ له، وقال له: يا بني أنت معدم وحالنا قريبة من حالك، ولست مخرجها إلى سواك، إلا أن أمها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال

فاسْعَ في الأرض واسترزق الله تعالى، لعلك تصيب ما تحقق به أمنيتك. فجاء إلى أمها وتلطف لها فأبت أن تجيبه إلا بما تريده من المهر الغالى على أن يسوق إليها هي شطرا كبيرا منه، فوعدها ذلك، وانصرف.

السفر إلى إيران

عرف عروة إنه لا تنفعه قرابة عند عمه وزوجته، وأنه لا سبيل له إلى عفراء إلا أن يحصل على مال وفير، ففكر في قصد ابن عم له ثرى كان مقيما في بلدة الرى بإيران، وعرض فكرته على عمه عقال وزوجته، فوافقاه على عزمه، ووعداه أن لا يزوجا عفراء غيره حتى يعود. وفي ليلة رحيله صار إلى ابنة عمه، فجلس عندها ومعها فتيات من الحي، وظلوا يتحدثون، حتى جاء الصباح، فودعها وودع صواحبها، وودع الحي جميعه.

وكان له رفيقان يألفهما، فصحباه في رحلته الطويلة، وشد كل منهم على راحلته، وكان في طول سفره ساهيا يكلمانه، فلا يفهم، حتى يرد عليه القول مرارا، إذ كان فكره دائما في عفراء، وكان كثيرا ما ينشد:

تحمَّلتُ من عفراء ما ليس لى بهِ ... ولا للجبال الراسيات يدانِ
فيا رب أنت المستعانُ على الذى ... تحمّلت من عفراء منذ زمانِ
كأن قَطاةً عُلِّقتْ بجناحها ... على كبدى من شِدَّة الخفقان

وكانا يعزّيانه ويقولان له إن أمنيتك منها ستتحقق، فلا يكف عن ذكرها وترداد اسمها، وما أصابه من حبها، وبراه من عشقها، ويقول:

متى تكشفا عني القميصَ تبيَّنا ... بيَ الضرَّ من عفراء يا فتيان
إذاً تريا لحماً قليلاً وأعظما ... بَلِين وقلباً دائمَ الخفقان
وقد تركتْني ما أَعِي لمحدِّثٍ ... حديثاً وإن ناجيتُه ونجاني

على كبدى من حبِّ عفراء قَرْحَةٌ وعيناىَ من وجدى بها غَرِقانِ

ومازال في هيامه وذكره لصاحبته حتى قدم على ابن عمه، فلقيه وعرّفه حاله وما قدم له، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها إلى أهله وقومه.

نقض العهد

تصادف أن رجلا من أهل الشام من بنى أمية نزل في حي عفراء فنحر بعيرا للناس ووهب وأطعم، وكان ظاهر الثراء، وبينما هو فى بعض مجالسه، إذ رأى عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميها تحمل إناء سمن وعليها إزار حرير أخضر، فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة، فسأل عنها، فعرف أنها ابنة عقال، فخطبها منه، فاعتذر إليه، وقال: لقد سبقك إليها ابن أخ لى يعدلها عندى، وما لغيره إليها سبيل، فقال له: إنى أرغبك فى المهر، فقال عقال: لا حاجة لى بذلك. فعدل الأموى إلى أمها فوجد عندها قبولا، لماله وبذله وكرمه، فوعدته أن تكون من نصيبه، وجاءت إلى زوجها فتلطّفت له، ثم قالت فى أثناء حديثها معه: أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه، وقد جاءها الغنى والثراء يطرقان عليها بابها، ووالله ما ندرى أعروة حى أم ميت، وهل ينقلب إلينا بمال أو لا، فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ورزقا سنيا. ولم تزل به حتى قال لها: إن عاد الأموى لى خاطبا أجبته ، فوجهت إلى الرجل من ساعتها أن عُدْ إلى عقال خاطبا. فلما كان من غد نحر (ذبح) عدة من الإبل وأطعم الناس وفرق عليهم الأموال، وكان قد دعا الحىّ جميعه وفيهم عقال ، فلما أكلوا أعاد القول فى الخطبة، فأجابه عقال وساق الرجل مهرا كبيرا قرّت له عين الأم، أما عفراء فكانت تنشد:

يا عُرْوَ إن الحىّ قد نَقَضوا عهدَ الإلهِ وحاولوا الغَدْرا

ولما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام في بني عذرة ثلاثة أيام، ثم ارتحل إلى الشام مع صاحبته.

عودة عروة

فكر عقال كيف يلقى عروة، وهداه تفكيره إلى أن يحتال عليه، فعمد إلى قبر عتيق، فجدده وسواه، وسأل الحيّ كتمان أمرها. وقدم عروة بعد أيام، فنعاها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القبر، فمكث يختلف إليه وهو يئن ويتفجع، وكان يأتي دارها فيلصق صدره بها، وينتحب أحرَّ انتحاب، فعذله بعض الناس وقالوا له إنك تشرف على التلف، فأنشد:

بيَ اليأسُ والداء الهيام سُقيته ... فإياك عني لا يكن بك ما بيا

ورقت لحاله بعض فتيات الحيّ، فأخبرنه بحقيقة ما كان من عمه وأنه غدر بوعده ولم يوف بعهده، ولما صح عنده ما أنبأته به الفتيات أنشأ يقول:

فيا عمّ يا ذا الغدر لا زلتَ مبتلى ... حليفا لهمٍّ لازمٍ وهوانِ
غدرتَ وكان الغدر منك سجية ... فألزمت قلبي دائم الخَفقانِ
وأورثتني غمًّا وكربا وحسرةً ... وأورثت عيني دائم الهملانِ
فلا زلت ذا شوقٍ إلى من هويته ... وقلبك مقسوما بكل مكانِ

إلى عفراء بالشام

ولم يلبث عروة أن عزم على الرحلة إلى الشام، لعله يرى عفراء ويشفي غليله بنظرة منها، فركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة واتجه إلى الشام فقدمها، وسأل عن الرجل فأخبره الناس به ودلوه عليه، فقصده، فأكرمه دون أن يعرفه وأحسن ضيافته، ومكث عنده أياما حتى أنس به. ثم عزم على أن يكشف عن

نفسه لصاحبته، فقال لجارية لها كانت تقدم إليه اللبن حين يصبح: هل لك في يد توليتيها؟ قالت: نعم، قال: تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك، فقالت: سوءة لك، أما تستحي من هذا القول؟! فأمسك عنها، ثم أعاد عليها، وقال لها: ويحك هي والله بنت عمي وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس، فاطرحي هذا الخاتم في قدحها، فإن أنكرت عليك، قولي لها: اصطبح ضيف عندنا قبلك، ولعله سقط منه. فرقت له الجارية وفعلت ما أمرها به. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم في القدح، فعرفته، فشهقت، ثم قالت لجاريتها: اصدقيني عن الخبر فصدقتها. فلما جاء زوجها قالت له: أتدرى من ضيفك هذا؟ فقال: إنى لا أعرفه، فقالت: إنه عروة بن حزام ابن عمي وقد كتمك نفسه حياء منه. فبعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمانه نفسه إياه، وقال له: بالرحب والسعة، نشدتك الله لا تترك هذا المكان أبدا. وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان، فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء. ثم ثاب إلى رشده، فقال لها: هذا آخر لقائنا، فقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن إليّ وأنا خجلان منه، ووالله لا أقيم بعد علمه مكاني، وإنى عالم أنى راحل إلى منيتي، فبكت وبكي وانصرف.

فلما جاء زوجها وعرف أن عروة راحل قال لها: يا عفراء امنعي ابن عمك من الرحيل، فقالت: هو والله لا يمتنع، إنه أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما. فدعاه وقال له: يا أخي اتق الله في نفسك فقد عرفت خبرك، وإنك إن رحلت تلفت، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا، ولئن شئت لأفارقنها من أجلك، فجزاه خيرا وأثنى عليه وقال: إنما كان الطمع فيها آفتي. والآن قد يئست وحملت نفسي على الصبر فإن اليأس يسلي، ولي أمور ولابد من رجوعي إليها، فإن وجدت بي قوة عدت إليكم وزرتكم، حتى يقضي الله من أمري ما يشاء، فزودوه وأكرموه وشيعوه، ومضى راجعا إلى قومه.

يأس وخبل

وكان عروة يتماسك في أول طريقه إلى قومه، ثم لم يلبث أن أصابه خفقان وغشيان، فكان يلقى على وجهه خمارا لعفراء زودته به، فيفيق، وينشد:

بِنَا من جَوى الأحزانِ والبعدِ لوعةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيقِ تذوبُ
وما عجبي موتُ المحبين في الهوى ولكنْ بقاءُ العاشقين عجيبُ

وانتهى إلى أهله، وقد سُلب عقله ومسه الخبل، ولم يعد يعي شيئا مما حوله، وأقام أياما لا يتناول طعاما، فخرجوا به ليلة إلى فضاء ليتنزه، فسمع رجلا يقول لابنه: على أى ناقة حملت قِرَبَ الماء؟ فقال على العفراء (ناقة) ولم يكد عروة يسمع ذلك حتى أغمي عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

وإنى لتعرونى لذكراكِ رِعْدةٌ لها بين جلدى والعظامُ دبيبُ
فواللهِ لا أنساكِ ما هبَّت الصَّبا وما أعقبتْها في الرياح جَنوبُ

التداوى من الحب

واشتد الخبل والهذيان بعروة كما اشتد به الضنا والنحول حتى لم يكد يبقى منه شئ فقال قوم: إنه مسحور وقال قوم: بل به جِنَّة وقال آخرون: بل هو موسوس، ثم قالوا لأهله: إن في اليمامة (بالجنوب الشرقي من بلاد العرب) عرَّافا طبيبا حاذقا يداوى من الجن، وهو أطبُّ الناس، فلو أتيتموه، فلعل الله يشفيه، فساروا إليه من أرض بنى عذرة (فى شمالى الحجاز) فجعل يسقيه السلوان وهو لا يزداد إلا سقما، فقال له عروة: هل عندك للحب دواء أو رقية، فقال: لا والله. فانصرف عنه مع أهله، وهو يقول:

أقول لعرَّافِ اليمامة داوني فإنك إن داويتنى لطبيبُ
وما بيَ من خبلٍ ولا مسِّ جِنَّةٍ ولكنَّ عمّى يا أخيَّ كذوبُ

فواكبدا أمستْ رُفاتاً كأنما يلذّعهـا بالموقدات طبيبُ
عشية لا عفراءُ منك بعيدةٌ فتسلو ولا عفراء منك قريب

وسمع أهله بعراف آخر في الحِجْر بالقرب من ديارهم، فقصدوه بـه، فعالجـه، وصنع به مثل صنيع عراف اليمامة فلم يزد إلا ضنـى وسـقما. وقـال لـه عـروة: والله ما دائى ودوائى إلا شخص مقيم بالشام، فهـو دائـى وعنـده دوائـى وهـو الذى أمرضنى وأضنانى، فيئس العراف من شفائه، ومضـى بـه أهلـه إلى ديـارهم يائسين وهو ينشد فى الحين بعد الحين:

جعلت لعرّاف اليمامةِ حكمه وعرّاف حِجْرٍ إنْ هما شفيانى
فقالا: نعم، نشفى من الداء كله وقاما مع العُوّاد يبتدرانِ
فما تركا من رُقْية يعلمانها ولا سلوةٍ إلا وقد سقيانى
وقالا: شفاك الله ، واللهِ ما لنا بما حُمِّلتْ منك الضلوع يدان

موت العاشقين

ومازال عروة يعانى من حبه، وأهله يعنون بـه، حتـى أصبـح خيـالا، والنـاس ينظرون إليه ويتعجبون من أمره، والموت يروح ويغدو بين عينيـه. وظـل علـى ذلك الحال حتى فاضت نفسه، وهو يقول:

من كان من أخواتى باكياً أبدا فاليوم إنّى أرانى اليومَ مقبوضا

وبرزت أخواته فشققن ثيابهن وضربن خدودهـن، فـأبكين كـل مـن حضـر، ومات من يومه. ولما بلغ موته عفراء قالت لزوجها: قد كـان مـن أمـر عـروة مـا بلغك ووالله ما كان ذلك إلا على الحسن الجميل وقد مات بسببى ولا بد لى أن أقيم مأتما عليه وأندبه، فأذن لها فى ذلك. فشدت الرحال إلى قبره وظلت تندبـه ثلاثة أيام وهى تنشد:

فلا لقيَ الفتيانُ بعدكَ راحةً   ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ
ولا وضعتْ أنثى تماماً بمثله   ولا فَرِحتْ من بعدهِ بغلام

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتبكي حتى ماتت، فدفنت إلى جانبه، فنبتت من القبرين شجرتان، حتى إذا طالتا التفتا، فكان الناس يعجبون من ذلك.

كُثَيِّر وعَـزَّة

ابتداء الحب

كان كثيِّر من قبيلة خُزَاعة، وكان شاعرا مبدعا، وكانت عَزَّة من قبيلة ضمرة، وتعلق بها وأكثر فيها من الغزل حتى عرف بها، فسمي كثير عزة، وكانت أول علاقة له بها أنه خرج خلف غنم يسوقها إلى موضع بالقرب من المدينة فلما كان بمنازل بنى ضمرة مر بنسوة فسألهن عن الماء، فقلن لعزة، وهى جارية قد كعب ثدياها: أرشديه إلى الماء، فأرشدته وأعجبته، وغابت قليلا، ورجعت إليه وهو يسقي غنمه، فقدمت له طائفة من الدراهم، وقالت: يقلن لك النسوة: بعنا بهذه الدراهم كبشا من غنمك، فأمر غلاما معه أن يدفع إليها كبشا، وقال لها: رُدِّى الدراهم وقولي لهن: إذا غدوت عليكن اقتضيت حقي.

فلما غدا عليهن في اليوم الثاني جاءته امرأة منهن بدراهمه، فقال: أين الصبية التى أخذت مني الكبش، قالت: وما تصنع بها؟ إنها عزة وما شأنك؟ فقال: عزة غريمي، ولست آخذ حقي إلا منها، فمزحت معه وقالت: عزة جارية صغيرة، وليس فيها وفاء لحقك، فأحله عليّ أو على إحدى النسوة اللاتى رأيتهن فإننا أملأ به منها وأسرع له أداء، فقال: ما أنا بمحيل حقي عنها وأنشد:

قضى كلُّ ذى دينٍ فوفّىَ غريمَهُ وعَزَّة ممطولٌ مُعنًّى غريمُها

ومضى لوجهه، ثم رجع بعد أن فرغ من بيع غنمه، يسأل عن عزة وينشد:

نظرتُ إليها نظرةً وهْي شاخص على حين أن شبَّتْ وبان نهُودها
من الخَفِرات البيض ودَّ جليسُها إذا ما انقضتْ أحدوثةٌ لو تُعيدها
نظرتُ إليها نظرة ما يسرُّني بها حُمْرُ أنعامِ البلادِ وسُودُها

ولما أبى أن يأخذ الدراهم إلا أن يراها أبرزتها له المرأة وهـى كارهـة لذلـك، وأحبته عزة بعد ذلك أشد من محبته لها.

غلام لكثير مع عزة

وكان لكثير غلام تـاجر فبـاع من عـزة بعض سـلعه وماطلتـه مـدة وهـو لا يعرفها، فقال لها يوما: أنت والله كما قال مولاى كثير:

قضى كلُّ ذى دَينٍ فوفَّى غريمَه وعزةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

فانصرفت عنه خجلة، فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا والله، قالت: فهـذه عزة، قال: لا جرم والله لا آخذ منها شيئا أبدا. ورجع إلى مولاه فأخبره بذلـك، فأعتقه ووهب له المال الذى كان في يده.

لقـــاء

سار كثيِّر إلى صديق من حيّ عزة فنزل عنده، وتوسل إليه أن يجمعه بعـزة، فصار به إلى منزلـه ، حتـى كـان العشـاء ، فـأخذ خاتمـه ، وجـاء بيتهـا، فسلم، فخرجت إليه فأعطاها الخاتم، فقـالت: أيـن الموعـد؟ فقـال: شـجرات أبـى عبيـد الليلة ، ورجع إليه، فأعلمه. فلما جن الليل قال له كثير: انهض بنا ونهـض معـه فجلسا هناك يتحدثان حتى أقبلت ، فجلست. وتحدث كثير وعزة فأطالا، وأراد الرجل أن يدعهما وشأنهما، فذهب يقوم، فقال له كثير إلى أين تذهب ، فقـال: أخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتمان . فقال له كثير: اجلس فـوالله ما كان بيننا شئ قط. فجلس الرجل وهما يتحدثان وبينهما شجرة عظيمة وهـى من ورائها جالسـة ، ومـا زالا كذلـك حتـى بـرق الصبـح، فقـامت وودعـت وانصرفت.

امتحان

أرادت عزة أن تمتحن كثيرا وترى ما لها عنده، فانتقبت يوما ومرت به، فرآها وهي تتبختر في مشيتها، فلم يعرفها، فاتبعها وقال: يا سيدتي قفي حتى أكلمك فإني لم أر مثلك قط فمن أنت ويحك؟ قالت: ويحك وهل تركت عزة فيك بقية لأحد؟ وإنها لك في صدق المودة ومحض المحبة والهوى على حسب الذى كنت تبدى لها من ذلك وأكثر، وأين قولك:

إذا وصلتنا خَلّةٌ كي تُزيلها   أبَيْنا وقلنا الحاجبية أولُ

فقال كثير: بأبي أنت وأمي أقصري وكفي عن ذكرها، واسمعي ما أقول، ثم أنشدها قوله، وقد صنعه توا:

ما وصلُ عزّةَ إلا وصل غانيةٍ   فى وصل غانيةٍ من وصلها خلفُ

ثم قال لها: هل لك في المصادقة والمخاللة؟ فقالت: كيف بعد الذى قلته في عزة وسار في الناس من غزلك وشعرك، ثم سفرت عن وجهها وقالت: أغدرا وانتكاثا يا فاسق؟! فبهت ولم ينطق بكلمة وتحير وخجل، ثم إنها أخذت في بيان غدره ونكثه وقلة حفاظه ونقضه للعهد والميثاق ، ثم قالت: لله جميل حيث يقول:

لَحَى اللهُ من لا ينفع الودُّ عنده   ومن حَبْله إن مُدَّ غير متينِ
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم   على العهد حلاّفٌ بكل يمينِ

فأنشأ كثير يعتذر إليها ويتنصل بالخزال وانكسار، وأخذ يحتال فى دفع زلته، وهي تؤنبه أعنف تأنيب، وهو يقول لها: ألم تسمعي قولى:

يزهّدني في حب عزّةَ معشرٌ   قلوبهمُ فيها مخالفةٌ قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى   فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللبِّ

وما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الآذانُ إلا من القلبِ

ولم تأبه له، وانصرفت عنه غاضبة.

امتحان ثان

وأرادت عزة امتحان كثيِّر مرة ثانية، فقالت لبثينة صاحبة جميل: تصدَّىْ لكثير وأطمعيه فى نفسك حتى أسمع ما يجيبك به، فأقبلت إليه وعزة تمشى وراءها من بعيد متخفية. وعرضت بثينة على كثير الوصل، فقاربها وهو ينشد:

رمتنى على عمدٍ بثينةُ بعدما ... تولى شبابى وأقْبلنْ شبابها
بعينين نجلاوين لو رقرقتْهما ... لنْجم الثريا لاستهلَّ سحابها

فكشفت عزة وجهها، فبادرها الكلام، وأتم شعره قائلا:

ولكنما ترمين نفسا مريضةً ... لعزةَ منهـا صفوُها ولُبابها

فضحكت، ثم قالت بثينة: أولى لك منى! نجوت. ومرتا تتضاحكان.

عزة تتزوج

تدافعت الريب والشكوك على عزة، وظنت أن كثيرا غير صادق فى هواها، فاحتجبت عنه، وتقدم لها فتى من عشيرتها يطلب الزواج بها فتزوجته. وكان كثير قد غاب عنها فى مديح بعض الرؤساء والحكام، لعله يصيب من المال ما يمكنه من زواجها، فأصاب خيرا. ثم قدم فوجدها قد تزوجت، فجزع وبكى أشد بكاء، وكان مما أنشد:

خَليلَىَّ هذا رَبْعُ عزَّة فاعْقِلا ... بعيريكما ثم ابْكيَا حيث حَلَّتِ
وما كنتُ أدرِى قبل عَزَّةَ ما البكا ... ولا موجِعاتِ القلب حتى تَوَلَّتِ

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زلَّتِ
صَفُوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلةً فَمَنْ ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ
أصاب الرَّدَى مَنْ كان يهوى لكِ الرَّدَى وجُنَّ اللواتى قلن عَزَّةُ جُنَّتِ
وما أنصفت، أما النساء فَبَغّضتْ إلىَّ وأما بالنوال فضنَّتِ

واصبح لا يهنأ له طعام ولا شراب، حتى أخذه الضنا والسقام، فكان يرحل فى الصحراء رحلات بعيدة يطلب السلو والنسيان.

كثير ومجنون ليلى

وخرج كثير مرة يسير في الفيافي، فإذا رجل معه ظبى، فسلم عليه فرد السلام، فقال له: أتطعمنى من هذه الظبية التى معك؟ فقال إى والله. فنزل، فعقل ناقته وجلس يحدثه، وإذ هو أحسن خلق الله حديثا وأرقه وأغزله، وأقبل على الظبية يقول:

أيا شبه ليلى لن تراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديقُ
ويا شبه ليلى لن تزالى بروضةٍ عليك سحابٌ دائمٌ وبروقُ
فديتك من أخلِ دهاك حُبُّها فأنتِ لليلى ما حييتِ طليقُ

ثم أطلقها، فمرت تجرى. فعجب كثير من شأنه، وقال لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل، فلما أمسى قام إلى غار قريب من الموضع وقام معه كثير، فباتا فى الغار. فلما أسفر الصباح قام وإذا ظبية تعدو فعدا خلفها حتى أمسك بها ونظر فى وجهها مليا، ثم أطلقها فمرت وأنشأ يقول:

اذهبى فى كلاءة الرحمن أنت منى فى ذمةٍ وأمان
ترهبينى والجيد منك كليلى والحشا والنحول والعينان
لا تخافى فلن تفاجى بسوء ما تغنى الحمام فى الأغصان

وظل كثير معه يومه، ولما أمسيا صارا إلى الغار فباتا فيه، ووقعت لهما في الصباح ظبية فوثب المجنون خلفها، حتى أمسكها، وأراد أن يطلقها، فقبض كثير على يده، وقال له: لقد متنا من الجوع وكلما أمسكت بظبية أطلقتها، فنظر في وجهه وعيناه تذرفان وبكى كثير لبكائه، وسأله نسبه، فعرف أنه مجنون ليلى، فودعه، ومضى لوجهه.

عتاب

ومر كثير في بعض غدواته وروحاته على حيّ عزة وهو راكب بعيره، فرآها في نسوة فأقبل عليها وقال: السلام عليك يا عزة، فقالت: عليك السلام يا جمل، فنزل عن الجمل وأطلقه وأنشد:

حيَّتْكَ عزّةُ بعد الهجر وانصرفتْ فحَيِّ ويحكَ مَنْ حيَّاك يا جملُ
لو كنتَ حَيَّيْتَها ما زلتَ ذا مِقَةٍ عندى وما مسَّك الإدلاج والعملُ
ليتَ التحيّةَ كانت لى فأشكرُها مكانَ يا جملُ حُيِّيتَ يا رجلُ

فالتفتت إليه معاتبة، وقالت: ويحك ألا تتقي الله، أرأيت قولك الذى أشهرتنى به:

بآية ما أتيتُكِ أمَّ عمروٍ فقمتِ لحاجتى والبيتُ خالى

أخلوت معك في بيت قط، فقال: لم أقل ذلك أبدا، ولكننى قلت:

وأقسم لو أتيتُ البحرَ يوماً لأشربَ ما سقتْنى من بِلالِ

فقالت: أما هذا فنعم، ثم قامت، فمرت إلى خبائها، وهو يتبعها بعينه ويبكى وينشد:

الله يعلم لو أردتُ زيادةً في حب عزّةَ ما وجدت مزيدا
رهبان مَدْين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خَرّوا لعزة خاشعين سجودا
والَميْتُ يُنْشَر إن تمسّ عظامه مسًّا ويخلد إن يراكِ خلودا

فى الطريق إلى الحج

حج كثير فى سنة من السنين وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحد منهما بصاحبه، فلما كانوا فى بعض الطريق أمرها زوجها أن تبتاع سمنا من بعض من فى القافلة تصلح به طعاما لأهل رفقته، فجعلت تسأل فى القافلة، حتى لقيت كثيرا وكان يبرى أسهما له، فلما رآها جعل ينظر إليها وهو مستمر فى بريه للسهام، فبرى ساعده وهو لا يشعر فجرى الدم منه، فلما تبينت ذلك أمسكت يده وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها، وقال لها: عم تبحثين، فعرفته بغيتها، وكان عنده قدح سمن فحلف لتأخذنه. فأخذته وجاءت به إلى زوجها. فلما رأى الدم سألها عن خبره فكاتمته، حتى حلف لتصدقنه فصدقته، فحلف لترجعن ولتشتمن كثيرا فى وجهه، وجاء بها إليه، فوقفت عليه وهو معها، فسبته وهى تبكى، وعرف كثير سبب بكائها فقال:

يكلّفها الخنزير شتمي وما بها هواني ولكن للمليك استذلّتِ
هنيئا مريئا غير داء مخامرٍ لعزة من أعراضنا ما استحلّتِ
وقلت لها يا عَزُّ كلُّ مصيبةٍ إذا وُطّنتْ يوما لها النفسُ ذلّتِ

مرض عزة وموت كثير

ومرضت عزة مرضا شديدا، وسمع بذلك كثير، فجزع عليها جزعا ممضا، وألمّ بدارها يسأل عنها وينشد هذه الأبيات:

يقولون سوداءُ العيون مريضة فأقبلتُ من أهلي إليها أعودُها
فوالله ما أدرى إذا أنا جئتها أأبرئها من دائها أم أزيدها
إذا جئتها وَسْطَ النساء منحتها صدودا كأن النفس ليس تريدها
ولى نظرة بعد الصدود من الجَوى كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها

وعوفيت ليلى، ولم تمض إلا مدة يسيرة، حتى مات كثير، فخرجت عزة إلى جنازته ومعها كثير من النساء يبكينه ويندبنه ندبا حارا.

تَوْبة ولَيْلى الأخْيليَّة

نشأة الهوى

كان توبة شابا شجاعا مبرزا فى قومه آل خفاجة سخيا فصيحا مشهورا بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وكان قومه ينزلون فى بادية الحجاز مجاورين لبنى الأخيل العامريين، ويذهبون معهم فى الحروب والغزوات، وكان شيخ بنى الأخيل حذيفة بن شداد، وكان له ابنة شاع فى العرب ذكرها بالحسن والفصاحة وحفظ أنساب العرب وأيامها وأشعارها، وحدث أن غزا بنو خفاجة وبنو الأخيل يوما. فلما رجعوا من غزوهم حانت من توبة التفاتة، وقد برزت النساء للقاء القادمين من الغزو ، فرأى ليلى، فافتتن بها ، فجعل يعاودها، فيتحادث معها، إلى أن أخذت قلبه وأطارت لبه، فشكا لها يوما ما نزل به منها، فأعلمته أن بها منه أضعاف ذلك فأقاما على التزاور وشكاية الهوى.

زواج ليلى

كان توبة يقول الشعر فى ليلى، فخطبها إلى أبيها، فأباها عليه لعادة العرب أن لا يزوجوا بناتهم لمن يتغزل بها ويشهر فى الناس اسمها، وتقدم إليها شاب من عشيرة بنى الأدلع فزوجها أبوها له، فقلق توبة. وكان يترقب غفلات الحى فى الليل فيزورها.

فلما كثر منه ذلك خرج أبوها وزوجها ومعهما نفر من قومهما إلى السلطان، فشكوا إليه ما نالهم من توبة وما شهرهم به، وسألوه الكتاب إلى عامله عليهم بمنعه من الإلمام بليلى والكلام إليها أو الحديث معها، فكتب لهم

كتابا إلى عامله يأمره فيه أن يحضر توبة ويتقدم إليه فى ترك زيارة ليلى، فإن أصابه أهلها عندها فقد أهدر دمه. فلما ورد الكتاب على عامله بعث إلى توبة وأهله فجمعهم وقرأ عليهم كتاب الخليفة، وقال لتوبة: اتق الله فى دمك لا يذهب هدرا. وخرج مع قومه فأخذوا يلومونه وينهونه عن الاقتراب من ليلى ودارها، فبكى، وسمع حمامة تترنم، فقال:

حمامةَ بطنِ الواديين ترنّمى　　سقاكِ من الغُرِّ الغوادى مَطيرُها
أبينى لنا لا زال ريشُكِ ناعما　　ولا زلتِ فى خضراءَ غَضٍّ نَضيرُها
يقول رجال لا يضرُّك نَأْيُها　　بَلَى كلّ ما شقَّ النفوسَ يضيرها
وإنى ليشفينى من الشوق أن أرى　　على الشَّرفِ النائى المخوف أزورها
أرى اليوم يأتى دون ليلى كأنما　　أتت حِجَجٌ من دونها وشهورها

علامة بين العاشقين

ظل توبة يزور ليلى خفية ، فطلبه قومها ، ولما خافت عليه منهم جعلت بينه وبينها أمارة ، فقالت له : إذا مررت فوجدتنى مبرقعة فاجلس إلى مطمئنا فلا حرج حينئذ ، فإذا رأيتنى سافرة فلا تقرب منى واحتط لنفسك وخذ الحذر.

ودخل على ليلى زوجها، وكان غيورا، فحلف إن جاءها توبة ولم تعلمه بمجيئه ليقتلنها، وكانت تعرف الجهة التى يجيئها منها، فرصدوه بموضع، ورصدته بآخر، فجاء، فأسرعت وألقت البرقع عن رأسها، فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه قد رُصد وأنها سفرت لذلك تحذره، فركض فرسه وتولى آسفا وهو ينشد:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعتْ　　فقد رابنى منها الغداة سفورُها
وقد رابنى منها صدودٌ رأيته　　وإعراضُها عن حاجتى وقصورها

زيارة

ولما اشتد زوج ليلى وأهلها عليها في مراقبتها ظلت لا تمكنه من زيارتها ولقائها إشفاقا عليه وخوفا على نفسها، وخرجوا في نجعة، فأرسلت إليه من يخبره. فذهب إليها وتحادثا وتشاكيا ما يلقيان من الوجد وما زال معها حتى انكشف النهار، فودعها ومضى وهو يقول:

أليس يضرُّ العينَ أن تكثر البكا ... ويُمْنع منها نومها وسرورها
لكلٍّ لقاءٍ نلتقيه بشاشةٌ ... وإن كان حولا كل يوم نزورها

عتاب

بلغ ليلى أن توبة يتحدث في شعره عن زياراته لها وأنها تلقاه في خِبائها، فغضبت غضبا شديدا، وقالت إنه يقول ما يريبني وما التقيت معه إلا على عفاف. وأمسكت عن لقائه فتوسل إليها بكل وسيلة أن تلقاه. فأبت ذلك إباء شديدا، وقالت إنه يريد أن يفضحني بما لم يحدث. فأرسل إليها أنه سيتناول السم أو يلقي بنفسه من رأس جبل، فرقّت له، ودعته إلى زيارتها بعد أن جمعت ثلاثة من أهلها، بحيث يخفون عليه. فلما جاءها قالت له: أى خدر دخلت معي حتى تشيع ما تشيع، فاعتذر إليها وتنصل جهده، وقال لها: إن الوشاة الأعداء هم الذين يشيعون ذلك حتى يفرقوا بيننا، وأما أنا فقلت:

عليّ يمينٌ الله إن كان بَعْلها ... يرى لِيَ ذنبا غير أنى أزورها
وإني إذا ما زرتها قلت يا اسلمي ... وما كان في قولي اسلمي ما يَضيرها

فسرت لقوله، ولسماع أهلها ما يبرئ ساحتها.

رقابة الزوج

وكان زوج ليلى لا يزال يراقبها ويرتاب في أمرها، وكلما رأى حول بيته

شبحا ظنه توبة وأنها على موعد معه. فمن ذلك أن رجلا من عشيرة أخرى غير عشيرتها ابتغى إبلا له ضلت منه، وما زال يبحث عنها، حتى دخل عليه الليل بالقرب من خِباء ليلى. فنزل حيث ينزل الضيف، وأبصرته ليلى ولم تكلمه لأن زوجها كان غائبا. فلما كان بعد هدأة من الليل، وتراءى شبح الرجل من بعيد، فخاله زوجها توبة. فدخل عليها يناجيها ويقول: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه. فقال لها: كذبت، ما هو إلا توبة أو بعض أصدقائك. ونهض يضربها وهي تناشده. فقال لها: والله لا أترك ضربك حتى يأتي ضيفك هذا فيغيثك. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير، يا رجل. وأقبل الرجل يسرع حتى أتاها وزوجها يضربها، فأخذ بخناقه. فتعرضت ليلى للرجل وقالت له: يا عبد الله: مالك ولنا؟ نَحِّ عنا نفسك.

وانصرف الرجل، حتى إذا كان الغد ألم بالحيّ، ورأى غنما فيها راعية، فسألها عن أشياء، حتى بلغ به الذكر، فقال لها أخبريني عن أصحاب الخباء الفلاني وعين لها الخباء الذى رأى فيه حادث الأمس. فضحكت وقالت له: إنك تسألني عن شئ أنت به عالم، فقال: وما ذاك، لله بلادك؟ فوالله ما أنا به عالم، قالت: ذاك خباء ليلى الأخيلية وهي أحسن الناس وجها، وزوجها رجل غيور، فهو يعزب بها عن الناس فلا يقيم بها معهم ، وما يقربها أحد ولا يضيفها ، فكيف نزلت أنت بها؟ فقال: إنما مررت فنظرت إلى الخباء ولم أقربه، وكتم عنها الأمر.

زواج توبة

لما بالغ زوج ليلى فى مراقبتها هجرت توبة، فأضناه الشوق حتى أسقمه، فلامه رفقاؤه، وقالوا له إنك تضيع عمرك وراء ذات بعل، وأولى لك أن تطلب غيرها، وفي العرب جميلات كثيرات، فارفق بنفسك وتزوج من امرأة لعلها

تنسيك صبابتك بليلى، واحذر لقاءها، فإن زوجها بالمرصاد وقد أهدر السلطان دمك، فلا تغرر بنفسك.

ونزل توبة في بعض نجعات قومه برجل أكرمه، وكان له ثلاث بنات، وأعجب به فعرض عليه إحداهن ليكون بعلا لها، فاختار كبراهن، ومكث معها عند أبيها مدة، ولكنها لم تُنْسه ليلي، فقد عاوده الحب وعاودته أسقامه.

ريبة عارضة

عاد توبة إلى قومه، وجعل يزداد به الوجد، وينشد في ليلى أشعاره، وهي معرضة عنه، لما عرفت من زواجه. غير أنه لم يكف عن الإلمام بدارها حتى حانت له يوما فرصة، فحدّثها وحدّثته، وكان أول ما قالت له: إنك قد علقت بأخرى فما لك لا تكف عنا، فحلف لها أنه لم يقربها وأنه لا يزال يحفظ ودها وعهدها، ثم بدرت منه كلمة ظنت أنه خضع فيها لبعض الأمر، فقالت له:

وذى حاجةٍ قلنا له:لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه ... وأنتَ لأخرى فارغٌ وحَليل

ففطن أنها استرابت منه، فحلف أنه لم يرد سوءًا، فاستشاطت غضبا وودعها على استحياء ومضى.

الرحيل إلى الشام

ولما لج بتوبة الحب نصحه بعض أهله أن يرحل إلى الشام غازيا، لعله ينسى حبه، واستمع إلى نصحهم، فخرج إلى الشام ومر ببني عذرة، فرأته بثينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، فقال له جميل: من أنت؟ قال أنا توبة الخفاجي، فقال له: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة

ثوبا مصبوغا، فلبسه، ثم صارع توبة فصرعه. ثم قال له: هل لك في النضال ورمي السهام؟ قال: نعم فناضله، فنضله. ثم قال له: هل لك في السباق؟ فقال نعم، فسابقه، فسبقه. فقال له توبة: يا هذا إنما غلبتني بما شدت من عزيمتك هذه المجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي، فصرعه توبه ونضله وسبقه.

العودة سريعا

لما دخل توبة الشام أقام بها يسيرا، ولم يستقر به المقام، فقد كانت تعاوده ذكرى ليلى الأخيلية، وكان يخرج إلى التلال والروابي، ليعزى نفسه، وجزع جزعا شديدا وأصبح دأبه البكاء، فلم يلذ له حال، ولا نعم له بال. فعاد إلى قومه، وحين دخل حيّ ليلى لقي صغيرا يلعب، فقال له: هل أنت عارف بليلى؟ قال: نعم، قال: امض وأنشد:

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعتْ   فقد رابني منها الغداةَ سفورُها

وعد إليّ وقل لي ما تجيبك به. فمضى الغلام، فأنشد ليلى البيت، فعلمت أن توبة قد ورد الحيّ، فقالت للغلام: قل له إنها الآن مبرقعة، فمضى الغلام إليه وأعلمه ذلك، فأقبل إليها فجدد زيارتها على خيفة من زوجها.

موت توبة

كان بين بني خفاجة قوم توبة وبعض قبائل العرب حروب وثارات، وكانت المعارك لا تزال ناشبة بينهما، فاشترك توبة يوما في بعض هذه المعارك، وأبلى بلاء حسنا، ولكن سهما أصابه من بعض الأعداء، فخر مغشيا عليه وحضرته الوفاة، فقال له ابن عم له: هل لك حاجة أبلغها إلى أهلك، فقال: نعم تبلغ ليلى الأخيلية هذه الأبيات:

ولو أنَّ ليلى الأخيليّة سلّمتْ علىَّ ودونى تُرْبةٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زَقا إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ
ولو أن ليلى فى السماء لأصعدتْ بطرفى إلى ليلى العيونُ الكواشحُ
أأغبط من ليلى بما لا أناله ألا كل ما قرَّت به العين صالحُ
وهل تبكيَنْ ليلى إذا متُّ قبلها وقام على قبرى النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموتُ ليلى بكيتها وجاد لها جارٍ من الدمع سافحُ

فقال: إنى مبلغها، فقال توبة: وهل لك فى أخرى؟ جزاك الله خيرا قال: ما هى؟ قال: إذا بلغت الحىّ فاصعد إلى شرف (مكان عال) ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتنَّ ليلةً من الدهر لا يَسْرِى إلىَّ خيالها

فأقبل الرجل على ليلى فأبلغها أبيات توبة، فبكت بكاء شديدا. ثم صعد شرفا، وأنشد البيت، فأجابت ليلى:

وعنه عفا ربى وأحسن حفظه عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالُها

ليلى تندبه حتى الموت

وأسرعت ليلى فخلعت زينتها، وأقامت على الحزن طوال حياتها من بعد توبة، لا يهنأ لها طعام ولا شراب، وأكثرت من ندبه والنواح عليه من مثل قولها:

لتبك عليه من خفاجةَ نسوةٌ بدمعٍ كفيض الجدول المتفجِّرِ

وقولها:

فلا يبعدنْك الله يا توبَ هالكا أخا الحرب إن دارت عليك الدوائرُ
وآليتُ لا أنفكُّ أبكيك ما دعتْ على فَنَنٍ ورقاءُ أو طار طائر

ولها فيه قصائد وأشعار كثيرة، تندبه بها ندبا حارا، وكانت لا تقبل من سفر إلا تمر بقبره وتبكيه بكاء مرا، وأقبلت على القبر يوما ومعها زوجها، وهي في هودج لها، فقالت: والله لا أبرح حتى أسلم على توبة. وتركها زوجها فصعدت أكمة عليها القبر، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم التفتت إلى من معها من القوم وقالت: ما بالله لا يسلم علي، تشير إلى قوله

ولو أنَّ ليلى الأخيليّة سلّمتْ   عليّ ودوني تُرْبةٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زَقا   إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر، فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنوها بجواره.

الصِّمَّة وريَّـا

تعارف مبكر

كان الصمة القُشَيْرى فتى من فتيان بنى عامر ومن شجعانهم وشعرائهم، وقد تعلق حين شب بابنة عمه ريا وكانت ذات حسن وظرف تعرف أيام العرب وأشعارها، وقد نشآ معا، فكانا يتذاكران الأخبار ومُلَسح الشعر وما جرى منه على ألسنة العشاق.

وأعجب بها الصمة إعجابا ملك عليه قلبه وذهب بلبه، ولم يكن عندها من الحب مثل ما عنده منه، فلما شكا ما يجد منها إلى بعض رفقائه نصحوه أن يطلبها من عمه فإنه لن يرده خائبا.

الصمة يخطب ريا

وذهب الصمة إلى عمه فخطب منه ابنته ريا، فقال له لا أزوجها إلا على مائة من الإبل، فذهب إلى أبيه فأعلمه ذلك وشكا إليه ما يجد بها، فأعطاه تسعة وتسعين بعيرا، وقال له: هى كل ما أملك، ولعل عمك يقبلها. فلما جاء بها عمه عدها، فوجدها تنقص بعيرا، فقال: لا آخذها إلا كاملة. فلما رأى ذلك من فعله أرسلها فعاد كل بعير منها إلى الأُفه، وأخذ يبكى نفسه وحظه.

زواج ريا

وخطب ريا من أبيها أحد فتيان بنى عامر، وكان موسرا، فأوفى له بما أراد من الإبل، وزفها إليه، فوجد بها الصمة وجدا شديدا وأظلمت الدنيا فى عينيه، وحاول أن يلم بها أو يلقاها، فصدته عنها فبكى وأنشد:

لعمريَ إن كنتم على النأيِ والقِلَى بكم مثلُ ما بي إنكم لصديقُ
إذا زفراتُ الحبِّ صعَّدن في الحشا رُدِدنَ ولم تُنْهَجْ لهن طريق

الرحلة إلى الغزو

ولما تنازع الصمة الشوق مرض حتى أضناه السقم، فأخذه أبوه إلى كاهن، لعله يشفيه مما به، وكان الكاهن يسمى غاوى بن رشيد، فلما سأله عن مرضه، وألح في السؤال، قال:

حننتَ إلى ريّا ونفسُك باعدتْ مزارك من ريا وشعباكما معا
وما حَسَنٌ أن تأتيَ الأمرَ طائعاً وتجزعَ أنْ داعى الصبابةِ أسمعا
كأنك لم تشهدْ وداعَ مُفارقٍ ولم تر شِعبى صاحبين تقطّعا
بكت عينيَ اليسرى فلما زجرتُها عن الجهل بعد الحلم أسْبلتا معا
وليست عَشيّات الحِمَى برواجعٍ إليكَ ولكنْ خَلِّ عينيكَ تدمعا

فقال الكاهن لأبيه أنه يشكو العشق لا غيره، وليس له دواء عندى، إنما دواؤه الرحلة حتى ينسى. فعاد به أبوه إلى الحيّ وأخذ رفقاؤه يحثونه على الغزو والجهاد مع المحاربين فى بلاد إيران، فأقام مقاما يسيرا، ثم رحل مع جماعة كانوا راحلين نحو العراق، وألم ببيت ريا، فخرجت إليه تودعه، فذكرا ما كان بينهما وأنشد:

أما وجلالِ الله لو تذكرينني كذكريك ما كفكفتُ للعين مدمعا
فقالت: بلى والله ذكرا لو انه يُصَبُّ على صُمِّ الصّفا لتصدّعا

وتركها وهو ينشج أحرّ نشيج، ولما بعد عن الحى أظهر توها شديدا، فصبّره رفاقه، وأخذوا يعزونه عنها، وهو يلتفت إلى ديارها ويقول:

ولما رأيت "البِشْر" قد حال بيننا   وجالتْ بناتُ الشوق في الصَّدْر نُزَّعا
تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني   وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأَخْدَعا

وجدَّت الرفقة في سيرها، وهو مسلوب العقل ذاهل القلب، لا يتحدث إلا عن صاحبته وذكرياته وما كان من قساوة عمه، وما يزال ينشد:

وأذكر أيام الحِمَى ثم أنثني   على كبدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

وما زالوا جادين في المسير حتى وصلوا إلى نهر الفرات، فقالوا له: لقد خرجنا من جزيرتنا، فدع صاحبتك وانظر إلى نفسك فإنها لو كانت صادقة الود ما تزوجت ولا اختارت عليك، فالتفت إلى ورائه وإلى الرياح الوافدة من ديار ريا، وقال:

إذا ما أتتنا الريحُ من نحو أرضِكم   أتتنا بريَّاكم فطابَ هبوبُها
أتتنا بريح المسك خالطَ عنبراً   وريحِ الخزامى باكرتْها جَنوبها

فظلوا يواسونه، ويقولون له إنك خرجت إلى الجهاد في سبيل الله كي تنساها، وحرام عليك أن تعود إلى ذكراها لما أنت قادم عليه من لقاء الأعداء ومنازلة الفرسان.

الوفاة في طبرستان

ولما التقى الجمعان أبلى في الحرب بلاء عظيما ودل على فروسية وشجاعة باهرة، كانت مضرب الأمثال من الأبطال والشجعان. وكان ما يزال رفقاؤه يلحظون عليه تولعه بريا، فكانوا يسلونه، وهو عنهم ذاهل القلب، غافل عما يقولون.

وبينما هو ينازل قرنا من الأعداء تذكر ريا، فكف عن نزاله، وحاول أن يعود ليرجع إليها، ولكن القرن عاجله بطعنة نافذة، فخرَّ على الأرض، فأسرع

إليه رفيق فحمله، فإذا هو يتحرك ولا يتكلم، وأصغى إليه رفيقه، فوجده يتمتم بصوت خفي:

تَعزَّ بصبرٍ لا وجدِّك لا ترى نساء الحِمَى أخرى الليالى الغوابرُ
كأنَّ فؤادى من تذكُّره الحِمَى وأهل الحِمى يهفو به ريشُ طائر

وما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.

وحمل نعي الصمة إلى أهله، فخرجت ريا ونساء الحي يندبنه ويبكين فيه الشجاعة والعفة، وبكاه الرجال ورثوه طويلا. ولم تطل الأيام بريا، فقد ماتت حزنا عليه وغما .

مالِك وظَريفة

من أول نظرة

كان في بنى علرة شاب حسن الوجه عذب المنطق سخى الكف يسمى مالكا، خرج يوما للصيد ، ومر في طريقه على عين ماء ، لبعض العشائر من قبيلته ، فوجد طائفة من النساء ، اجتمعن عليها، يغترفن بعض الماء ، ومن دونهن فتاة قد انفردت تمشط شعرها ، وقد انسدل على وجهها ، كأنه البدر يلمع في الظلام، فحين أبصرها وقعت في قلبه ، ولم يكد يحدثها وتحدثه حتى سقط مغشيا عليه، فقامت إليه، فرشت الماء على وجهه ، فلما أفاق وأبصرها تسكب عليه الماء كي يفيق ، قال : وهل مقتول يداويه قاتله ، وأنشد يحكى حاله ومآله:

خرجتُ أصيدُ الوحشَ صادفتُ قانصاً   من الرِّيم صادتني سريعاً حبائلُه
فلمـــــا رماني بالنِّبال مُسارعاً   رقاني ، وهل مَيْتٌ يداويه قاتلُه

فقالت له: كُفيت ما تشكو، وحادثته حتى ثابت إليه نفسه، وقد رقَّتْ له، ثم قامت فانطلقت مع النسوة وهي تنظر إليه، فأنشد باكيا:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى   ولا خير فيمن لا يحبّ ويعشقُ

مرض طويل

وعاد الفتى إلى حيه، ولم يعد يخرج للصيد كعادته، ومرض ولزم الفراش، فاقسمت عليه أمه أن يخبرها بحقيقة علته، فكان يخجل وينعقد لسانه، ولما ألحت عليه أنشد متأثرا:

يا علّةً طالتْ على دَنِفٍ يشكو الفراقَ وقلّةَ الصَّبْرِ
ما كنت أعلم أنني كلفٌ حتى تَلِفتُ وكنت لا أدرى
والبدر يشهدُ أنني هائمٌ مُغْرًى بحبُّ شبيهة البَدْرِ

وقصّ عليها قصة رؤيته للفتاة، فسألت عنها حتى عرفت أنها ظريفة بنت صفوان ، فمضت إليها وأخبرتها بما آل إليه حاله، وعرضت عليها أن تزوره، فقالت لها: إني لا أستطيع والناس حولى، كلهم واش حسود ، فقالت لها: إنما رجوت بزيارتك أن يبلّ من مرضه، فأبت أن تجيبها إلى ما أرادت ، وقصت خصلة من شعرها ، وقالت لها: أعطه هذه الخصلة ، لعله إذا أمسك بها زال عنه ما يجده وفارقه سقمه. فرجعت أمه إليه، وناولته خصلة الشعر فأخذ يقبلها ورجعت إليه نفسه قليلا قليلا.

محاولات

وكان مالك كلما اشتد عليه الوجد جعل على وجهه خصلة الشعر التى بعثت ظريفة بها إليه مع أمه ، فيستريح بعض الشئ . ولما كان فى بعض أيامه وقد خرج ليستنشق الهواء سقطت منه الخصلة ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، وعاوده السقم والضنا وأخذ يبكى ويردد:

أكفكفُ جفنَ العينِ والدمعُ سافحٌ كشبه غدير فوق خدَّىَ جاريا
فيا ليتَ شعرِى ذا البكاءُ إلى متى وحتّى متى ذا الحزن والجسم باليا

وأخذ يلم بدارها لعله يراها فى إحدى غدواتها أو روحاتها، ورآها يوما تسير مع بعض النساء من أهلها، فخالسته وخالسها النظر، ولم يستطيعا الكلام، ورأى دمعة تترقرق فى عينيها، فأنشد:

جلست لها كيما تمرُّ لعلنى أخالسها التسليم إن لم تسلّمِ
فلما رأتنى والوشاةَ تحدَّرت مدامعها خوفاً ولم تتكلم

وتعرض لها مرارا بعد ذلك، فلم يرها، فعمد إلى غلام من الحيّ، فمنّاه الجزاء إن هو أنفذ له ما يريد منه، وسأله الغلام ماذا تريد؟ فقال له: أريد منك أن تحاذى دار صفوان وتنشد هذه الأبيات:

مريضٌ بأفناء البيوت مطرَّحٌ أبى ما به من لاعج الشوق يبرحُ
وليس دواء الداء إلا بخيلةً أضرَّ بنا فيها غرامٌ مبرِّحُ
إذا ما سألناها وصالا تُنيله فصمُّ الصَّفا منها بذلك أسمح

وجعل يكررها عليه حتى حفظها. وحاذى دار صفوان، ورفع صوته بالأبيات، فعرفت ظريفة قائلها، وأنشدت تجيبه:

رعى الله من هام الفؤادُ بحبِّه ومن كدتُ من شوق إليه أطيرُ
لئن كثُرَتْ بالقلب أتراحُ لوعةٍ فإن الوشاةَ الحاضرِين كثير
وإن لم أزر بالجسم رهبة معشرٍ فبالقلب آتى نحوكم فأزور

ورجع الصبى إلى مالك فأنشده أبياتها، فسقط مغشيا عليه ساعة، ثم أفاق وهو يردد إهمال عشيرته وأبناء عمومته له قائلا:

أظن هوى الخَوْد الغريرة قاتلى فيا ليت شعرى ما بنو العمِّ صُنَّعُ
أراكم – وللرحمن درّ صنيعكم– تركتم دمى هَدْراً وخاب المضيِّعُ

زواج ظريفة

أضنى الحب مالكا وبراه، فتوسل إلى بعض أقاربه أن يخطبوا له ظريفة من أبيها، وذهبوا إليه يخطبونها منه، فقال: إنى لا أزوجها له بعد أن فضحها بشعره،

وردهم أقبح رد، ثم زوجها - على كره منها - لفتى مــن فتيان العشيرة تقدم إليها. ولما عرف مالك خبر زواجها أخذ يبكي بكاء مرا، فكان بنو عمه وأقرباؤه يواسونه ويعزونه، فكان يقول:

دعوني لما بي وانهضوا في رعايةٍ   من الله قد أيقنتُ أنْ لست باقيا
وإذ قد دنا موتي وحانت منيّتي   وقد جلبتْ عيني إليّ الدواهيا
أموت بشوقٍ في فؤاد مبرّح   فيا وَيْحَ نفسي مَنْ به مثل ما بيا

واشتدت به العلة، حتى غدا كالخيال، وفي يوم تتابع عليه الإغماء، وكان كلما أفاق من إغمائه ردد:

ليبكني اليوم أهلُ الود والشّفَقِ   لم يبق من مهجتي إلا شفا رَمَقِ
اليوم آخرُ عهدي بالحياة فقد   خلصتُ من رِبْقة الأحزان والقلق

ولم يزل على ذلك حتى شهق شهقة فارق على إثرها الحياة. وعلمت ظريفة بموته في حبها، فخرجت حتى انتهت إلى قبره فألقت نفسها عليه، وهي تبكي وتنشد:

اليوم أبكي لصبٍّ شفَّ مهجتَه   طولُ السقام وأضنى جسمَه الكمدُ
أعِطْرُ قبرك أسْرَى لي النسيمُ به   أم أنت حيثُ يناط السَّحْر والكبد

ثم التفت على صدرها وكبدها، فحركها من معها، فوجدوها ماتت، فدفنوها بجواره.

ابن أبى عمَّار الناسِك وسَلاَّمة

سلامة

كانت سَلاَّمة مولَّدة من مولدات المدينة وبها نشأت، وكانت من أحسن النساء وجها وأتمِّهن عقلا وأعذبهن حديثا، قرأت القرآن وروت الأشعار، ثم تعلقت بالغناء، فتتلمذت فيه على معبد مغنى المدينة المشهور، فمهرت، وجلست للغناء مع أختها ريا فى مجلس لهما بالمدينة، فكان الشعراء والناس يقصدون دارهما للسماع، ولم يبق بالمدينة شاعر إلا وشغفت قلبه حبا، وكان ممن أسرت لبَّه الأحوص، وفيها يقول فى بعض أشعاره:

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدْرِ ما الهوى　　فكن حجراً من يابس الصخر جَلْمَدا
وإنى لأهواها وأهوَى لقاءها　　كما يشتهى الصادى الشَّرابَ المبرَّدا

وكانت تصفى الود كل من يتعلق بها، كما كانت تكثر من الرحيل إلى مكة، موقدة فى نفوس الناس هنا وهناك جذوة الإعجاب.

الناسك المكى

وكان بمكة ناسك مشهور بالتقوى والعبادة والزهد فى حطام الحياة، وكان من قرَّاء الذكر الحكيم ورواة الحديث النبوى، ليس له شغل سوى النسك حتى لقَّبه أهل بلدته بالقَسِّ، وهو عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمى . وتصادف أن سمع غناء سلامة ذات يوم، فأظهر استحسانه وافتتانه به ، ورآه مولاها أمام داره، وهو يرهف سمعه، فدعاه أن يدخله إليها فيسمع منها، غير أنه أبى عليه مظهرا تحرجه، فقال له: فإنى أقعدك فى مكان تسمع منها ولا تراها ولا تراك،

فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها . فلما طال سماعه لها قال له : هل لك في أن أخرجها إليك ؟ فأبى . فلم يزل به حتى أخرجها ، وأقعدها أمامه ، وهي تضرب على العود وتغني ، وسرعان ما فتن بها وفتنت به، وشاع ذلك في الناس حتى غلب عليها لقبه ، إذ سموها سلامة القس.

غرام متصل

احتلَّ حب سلامة قلب القس، وأخذ يستأثر بكل مشاعره وعواطفه، حتى لقد حوله إلى شاعر غزل، ينظم الشعر، ويلقي به صاحبته ضارعا متوسلا، بل لقد تحول به إلى مايشبه شباكا يحوكها من حولها، وكلما تخلصت من خيوط تعثرت في أخرى، فإذا هي تقع في حبه كما وقع في حبها، وإذا هي تردد عليه كل ما ينظمه فيها، بل إنها لتتغنى به غناء عذبا ساحرا، فتضفي على جمال شعره جمال صوتها، وكأنما يتعانق العاشقان في الألفاظ والكلمات حين ينشد القس وتتغنى سلامة بمثل قوله:

سَلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهمُ اللائمُ والعاذرُ

وقوله:

أهابكِ أن أقول بذلتُ نفسي ولو أني أطيع القلبَ قالا
حياءً منكِ حتى سُلَّ جسمي وشَقَّ عليَّ كتماني وطالا

وطبيعي أن يذوى القس ويأخذه النحول والضمور، لأنه لا يحب حبا عاديا، فيه متاع وفرح وابتهاج، وإنما يحب حبا طاهرا نقيا كله حرمان، وكله ألم وضَنًى وشقاء، وكله وجد ليس بعده وجد، وكله عناء لا يشبهه عناء.

بين النسك والهيام

أخذت سلامة تمعن في حب القس، وكلما ظنّت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى منه، تراءى لها في الخيال، وكأنه يحاول أن يبعدها عنه، ولكن ترى متى يتحول حب القس من هذه النار العاصفة بنفسه إلى شراب مصفى؟ وكانت تلقاه دائما ويتجاذبان أطراف الحديث، ومن حين إلى حين يقدم لها أشعاره من مثل قوله:

سَلاَّمُ ويحكِ هل تحيِيْن مَنْ ماتا أو تَرْجعين على المحزون ما فاتا

وقوله:

ألا قُلْ لهذا القلب هل أنت مُبْصِرُ وهل أنت عن سَلاَّمَةَ اليومَ مُقْصِرُ

ولا يعدو ما بينهما من كلام النقاء العذريّ البريء، وإنه لينصرف دائما عن هذا الجمال المغرى والحسن الفاتن إلى النسك والعبادة، متخلصا من كل علاقة حسية وكل شائبة مادية.

وداع إلى الأبد

ملك حب القس على سلامة قلبها ومشاعرها، وكثيرا ما كانت تحدث نفسها أن تنعم بحبها وأن يضمها القس إلى صدره، ولكنها كانت كلما لقيته أكبرته وأجلته، وشعرت كأن حجبا صفيقة تقوم بينه وبينها، وإنها لهائمة به والهيام لا يعرف اليأس، وتخلو به ذات مساء، فتبادره بقولها: أنا والله أحبك، ويجيبها: وأنا والله أحبك، وتقول: وأنا أشتهي أن أعانقك وأقبلك، ويجيبها: وأنا أشتهي مثل ذلك، وتقول: فما يمنعك وإن الموضع لخال، ويجيبها: يمنعني أن أنعم بحبك في الدنيا وأشقى به في الآخرة فنغدو يوم القيامة من الأخلاء الأعداء

الذين ذكرهم الله عز وجل في قوله: ﴿الأخلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾. ويودعها وداع الأبد منشدا:

باتَتْ تُعلّلنا وتحسب أننا ... في ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ
حتى إذا سطع الصباحُ لناظرٍ ... فإذا بذلك بيننا أحلام

ويعود القس من أحلامه الكبيرة إلى ما كان عليه من الزهد والتقشف والعبادة والانصراف عن كل متاع في الحياة. وتشدّ سلامة رحلها إلى المدينة حاملة لعاشقها العابد بين الأسى والندم مودة صافية وإخلاصا لا حد له.

ذو الرُّمَّة وميَّة

أول الهوى

كان ذو الرمة من بني عدى بن عبد مناة شاعرا من أظرف الناس حلو المنطق حسن الحديث، إذا كلمك لم تسأم كلامه. وكانت مية بنت سيد شريف من تميم يسمى طلبة بن قيس بن عاصم، وكانت حمرية اللون أقرب إلى القصر بدينة، إلا أن فى كلامها عذوبة.

وسبب تعلق ذى الرمة بها وأول ما كان من عشقه لها أن حيَّه كان يقيم بالقرب من عشيرتها فى بعض نجعاته بشرقى الجزيرة العربية، وضلت لهم إبل فخرج هو وأخوه وابن عمه فى ابتغائها وطلبها، وبينما هم يسيرون رأوا خيمة كبيرة قد علا عمودها وأطنابها ومدت أوتادها وأسبابها، وكان قد أجهدهم العطش، فقال له أخوه وابن عمه: ائت الخيمة فاستسق لنا، فأخذ معه قربة صغيرة، وأتى الخيمة، فإذا عجوز جالسة فاستسقاها، فالتفتت وراءها وقالت: يا مى، فجاءتها فتاة تتمشط حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عناقيد النخل ووجهها يشف من خلاله، فقالت لها: اسق الغلام، فجاءت بماء خلط بلبن فسقته، ثم أخذت تملأ له قربته، وتقول له عابثة: لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك وحداثة سنك. ولها ذو الرمة بالنظر إليها، وأقبلت تصب الماء فى قربته والماء يذهب يمينا وشمالا، فأقبلت عليه العجوز وقالت له: يا غلام ألهتك مى عما بعثك أهلك له، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا؟ فخجل ومضى لصاحبيه وقد علق بقلبه من حبها لاعج عجز عن إطفائه، وغرام كلَّ عن إخفائه. وأتى أخاه وابن عمه، فحدثهما بها، وكيف تحرك لها قلبه، وهما يضحكان منه ويعجبان من أمره.

معاودة الزيارة

هام ذو الرمة بمية، وأصبح مستهام القلب بها يذكرها في غدوه ورواحه، ولما طال به هيامه عاد إلى زيارتها فكانت تلقاه وترحب به، ويتحادثان أحاديث طويلة. وكانت دياره بعيدة عن ديارها، فكان يلومه بعض رفاقه على ما توجب له زيارتها من نصب ومشقة، فكان يقول:

وكنت إذا ما جئت ميًا أزورها　　أرى الأرضَ تُطْوَى لي ويدنو بعيدُها
من الخَفِرات البيض ودَّ جليسُها　　إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تعيدُها

وظل يعاود زيارتها، وهي تستقبله، وتكرمه، وتحدثه، وقد عرفت أنها أسرت لُبَّه، ولم تكن تنتبذ به مكانا قصيا، بل كانت تجلس إليه ومعها صواحبها يستمعن إلى حديثه وأشعاره.

يزورها مع صديق

وكان لذى الرمة صديق يسمي عقبة بن مالك، فجاءه يوما وقال له: لقد عرفت أن الرجال في عشيرة مية قد انتجعوا فهل تسعدني في زيارة إليها، ترافقني فيها، فأجابه إلى بغيته. وركبا حتى أتيا حيها، وإذا بيتها خال قد خرج عنه أبوها وأهلها، فمالا إليها، ورآهما النساء، فتجمعن نحوهما ونحو بيت مية، وخرجت إليهما كأنها البدر السافر، وهتف النسوة: أنشدنا يا ذا الرمة من شعرك وغزلك، فقال: أنشدْهنَّ يا عقبة، فنظر إليهن وأنشدهن من شعر ذى الرمة:

وقفتُ على ربعٍ لميَّةَ ناقتي　　فما زلت أبكي عنده وأخاطبُهْ
وأسقيه حتى كاد مما أبثُّه　　تكلمني أحجارُه وملاعبُهْ

فلما بلغ قوله:

فأسبلتِ العينان والقلبُ كاتِمٌ بمغرورقٍ نمَّتْ عليه سواكبُهْ
هو الإلفُ قد حانَ الفراقُ ولم تَجُلْ بجاولها أسراره ومعاتبه

قالت ظريفة من النساء: لكن اليوم فلتجل. ومضى رفيقه، فلما انتهى إلى قوله:

وقد حلفتْ بالله ميةُ ما الذى أحدِّثها إلا الذى أنا كاذبُه
إذن فرمانى الله من حيث لا أرى ولا زال فى دارى عدوٌّ أحاربه

فقالت الظريفة لمىّ: قتلته، قتلك الله، فقالت مى: خف عواقب الله يا ذا الرمة. واسترسل الرفيق فى القصيدة إلى قول ذى الرمة:

إذا سرحتْ من حب مىٍّ سوارحٌ على القلب آمَّتْه جميعا عوازبه

فأعادت الظريفة على مي قولها: قتلته، قتلته. فقالت مي: ما أصحه وهنيئا له، فتنفس ذو الرمة نفسا حارًا. ومضى رفيقه في القصيدة إلى قوله:

إذا نازعتْك القول ميةُ أو بدا لك الوجه منها أو نَضَا الدرعَ سالبُهْ
فيا لك من خَدٍّ أسيلٍ ومنطق رخيمٍ وممزوجٍ تعلَّل شاربه

فقالت الظريفة ضاحكة: هذا القول قد تنازعه الشعراء والوجه قد بدا وقد واجهتها، فالتفتت إليها مية وقالت لها: ماذا تريدين؟ قاتلك الله. فقالت الظريفة ضاحكة: إن لكما لشأنا، وغمزت صواحبها قائلة: قمن بنا، فقمن وقام معهن رفيقه. ووقف بحيث يراهما، فجعل ذو الرمة يشكو لها وجده، وهى تقول له: كذبت، لست صادقا فيما تقول، وذرفت عيناه بالدموع، وأنشد:

ولما شكوت الحب كيما تُثيبنى بوجدىَ قالتْ إنما أنت تمزحُ
بِعاداً وإدْلالاً علىَّ وقد رأت ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرحُ
لئن كانت الدنيا علىَّ كما أرى تباريحَ من ذكراك فالموتُ أروحُ

ثم انفجر في البكاء، فتساقطت قطراته على خديه كأنها حبال توشك أن تخنقه واستمر في نشيده:

إذا خطرتْ من ذكر ميّة خطرةٌ على القلب كادت في فؤاديَ تجرحُ
هي البرء والأسقام والهمُّ والمنى وموت الهوى في القلب مني المبرِّح
تصرَّف أهواء القلوب ولا أرى نصيبك من قلبي لغيرك يمنح
وبعض الهوى بالهجر يمحى فَينْمحي وحبك عندي يستجدُّ ويربح

فقالت: كفى كفى، ورقّت له،ودخلت خباءها، وجاءته بقارورة طيب وقلادة، فأهدتهما إليه ذكرى زيارته وشعره. وودعها ومضى إلى رفيقه، فركبا بعيرهما، وعادا إلى حيهما وهو ينشد:

لعمرك إني يوم جَرْعاءِ مالك لذو عبرةٍ كلا تفيض وتخنقُ
وإنسانُ عيني يحسر الماء تارةً فيبدو وتاراتٍ يجمّ فيغرِق

زواج مية

كان أبو ميّة من أشراف العرب، فكان ذو الرمة يائسا من خطبتها، وتقدم إليها فتى موسر من عشيرتها فزفت إليه، ونقلت إلى حيه. ومر ذو الرمة مع صاحبين له بمنازلها التي كان يلقاها فيها وقد خرجت عنها، فقال يودع الآثار:

ألا فاسلمي يا دار ميّ على البِلىَ ولا زال منهلاً بجرْعائك القَطْرُ

ثم نزل عن ناقته وأقبل على بعض المواضع يبكي فيها ويقبلها وقد وجد وجدا شديدا، فنزل إليه صاحباه يواسيانه ويقولان له: لقد تزوجتْ وأحرى بك أن تنساها، وكيف تفكر فيها ودونها من يحرسها ولن تستطيع الوصول إليها، فأنشد يحكي قولهما:

أمَا أنت عن ذكراك ميّة مُقْصِرُ ولا أنت ناسي العهد منها فتذكرُ
تهيم بها ما تستفيق ودونها حجابٌ وأبوابٌ وسِترٌ مستّرُ

وبكى بكاء شديدا، فأخذا يعزيانه ويقولان له: أمسك نفسك، فقال: إننى جلد وإن كان منى ما تريان، وانصرفوا.

الإلمام بدار مية

وألم ذو الرمة بدار ميّة في ليلة ظلماء، فأضافه زوجها، وطمع ذو الرمة فى أن لا يعرفه، فيدخله بيته، فيراها ويكلمها. ولكن الزوج لم يلبث أن عرفه، فلم يدخله البيت وأخرج إليه طعامه وتركه بالعراء، فلما كان فى جوف الليل تغنى:

خليليّ عُدّا حاجتى من هواكما ومن ذا يواسى النفسَ إلا خَليلها
أَلِمّا بمىٍّ قبل أن تطرح النوى بنا مَطْرحا أو قبل بَيْنٍ يزيلها
وإن لم يكن إلا تعلل ساعةٍ قليلا فإنى نافعٌ لى قليلها

ففطنت إليه مية، وأرسلت إليه جارية لها تسأله أن لا يتغنى حتى لا يتعرض له زوجها بسوء، ولكنه لم يستمع إلى قول الجارية، وتغنى بصوت عال:

أراجعةٌ يا مىُّ أيّامنا الأُلى بذى الأَثْل أم لا ما لهن رجوع

فغضب زوجها، وقال لها: قومى فصيحى بهذا الرجل وسُبِّيه، وقولى له: أى الأيام كانت لى معك بذى الأثل، فقالت له: سبحان الله إنه ضيف، وما كل ما يقوله الشعراء صحيح، فانتضى زوجها السيف وقال: والله لأضربنك به حتى آتى عليك أو تقولى له ما قلت لك، فصاحت به كما أمرها زوجها، فنهض على راحلته، فركبها وانصرف عنها مغضبا، وهو يقول:

أيا مَىُّ قد أشمتِّ بى ويحك العِدا وقطّعْتِ حبلا كان يا مىّ باقيا

موت ذى الرمة

وظل ذو الرمة وفيا لمية يتغنى باسمها وبالمنازل التى كان يراها فيها، ويبكى بكاء حارا يذرف فيه الدمع مدرارا. ومرض حتى أسقمه المرض وأضناه، وسرعان ما حضرته الوفاة، فقال لأهله: لا تدفنونى فى الوهاد ولكن ادفنونى فى كثبان مرتفعة واغرسوا حول قبرى بعض الأشجار. فلما مات صلوا عليه، ثم حملوه وحملوا معه بعض الأشجار، وحفروا له قبرا فى كثيب عال دفنوه فيه، ودثروه بذلك الشجر. وبكاه الحى وندبته النساء طويلا.

العبَّاس بن الأحْنف وفَوْز

أول الهوى

كان العباس بن الأحنف شاعرا بغداديا غزلا حلوا مقبولا غزير الفكر عذب الحديث، محبوبا من هرون الرشيد ووزرائه وقواده، وكان محمد بن المنصور بن زياد الملقب بفتى العسكر يألفه ويعجب به، فكان يدعوه إلى منزله، وكان جوادا يختلف إلى مجلسه الأدباء والشعراء، وكان له جوار كثيرون، وكانت من بينهم جارية ظريفة تسمى فوزا تروى الشعر وأخبار العرب، فكان محمد يحضرها مجالسه؛ فوقعت في قلب العباس بن الأحنف، وعرفت موضعها من قلبه، إذ كان يطيل النظر إليها، وكان إذا سأله محمد بن المنصور عما أحدث من الغزل ينشد أشعاره وهو ناظر إليها، وكان يَكْنيها باسم ظلوم، لما كانت تصد عنه وتنفر منه وسأله يوما محمد ماذا أحدثت؟ فقال:

قالت ظَلومُ سَمِيَّة الظلم ما لى رأيتك ناحل الجسمِ
يا مَنْ رمى قلبى فأقصده أنت العليم بموضع السهم

فأطراه محمد، وأظهر إعجابه واستحسانه، وقال له: زدنا يا عباس من غزلك الرقيق، ونظر إلى فوز فرآها تتكلف الإعراض والازورار عنه، فأنشد:

ألا تعجبون كما أعجبُ حبيبٌ يُسيئُ ولا أعتبُ
وأبغى رضاه على سخطه فيأبى علىّ ويستصعب
فياليت حظى إذا ما أسأ تَ أنك ترضى ولا تغضب

فقال محمد بن المنصور: والله إن معشوقتك لمقصرة، ولو كنت في موضعك لقابلت إعراضها بإعراض، فقال على البديهة:

تحمَّلْ عظيمَ الذَّنب ممن تحبُّه وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالمُ
فإنك إلاّ تغفرِ الذنبَ في الهوى يفارقْك من تهوى وأنفك راغم

فطرب محمد وقال للعباس: صدقت، وانتهى المجلس، فقام، وانصرف.

متابعة الشكوى

وفي مجلس ثان لمحمد بن المنصور أقبل العباس فسلم، وبدت فوز، فخفق قلبه، وجلست دون أن تحييه، وأخذ العباس في الحديث، فسأله محمد، ما شأن صاحبتك وهل وصلتك؟ فأجاب:

واللهِ لو أن القلوب كقلبها ما رقَّ للولد الضعيف الوالدُ

وقال محمد: ترى من هي التي فتنتك وما مقدار حسنها؟ صفها لنا وأوجز، فقال على الفور:

لقد ملئتْ ماء الشبابِ كأنها قضيبٌ من الرَّيحان ريّانُ أخضرُ

وخجلت فوز، ولم يلتفت محمد ولا فطن. وقال: مسكين أنت يا عباس، ولو عرفتها لكلمتها في أمرك، ومن يعرف ربما كانت تصد عنك عتابا لا مللا ولا كرها، فأنشد:

لو كنتِ عاتبةً لسكَّن روعتي أملي رضاكِ وزرتُ غير مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن لي حيلةٌ صَدُّ الملول خلافُ صَدِّ العاتبِ

فقالت فوز: يا عباس ظن خيرا فربما كانت لا تستطيع لقاءك ولا أن تبادلك حبا بحب، فقال على الفور:

تمنّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما تمنيت أن أشكو إليها وتسمعا
أرى كلَّ معشوقين غيرى وغيرها قد استعذبا طولَ الهوى وتمتّعا

فقالت: أبلغك الله أمنيتك يا عباس. وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله.

أرق على أرق

أصبح العباس كلفا بفوز لا يفارق مجلسها ومجلس سيدها، واشتد به كلفه فكان يبيت الليل مسهدا لا يغمض له جفن وطال عليه ذلك فأنشد:

قفـــا خبِّرانى أيها الرجلان عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى
وكيف يكون النومُ أو كيف طَعْمُهُ صِفا النومَ لى إن كنتما تصفان

وشكا إلى بعض أصحابه أنه لا ينام، فتغامزوا عليه، وقالوا: محب هائم، دع الحب يأتك النوم، وأمسى لا يلم به النعاس، فأنشد:

لما رأيت الليلَ سدّ طريقه عنّى وعذّبنى الظلامُ الراكدُ
والنجمُ فى كَبِد السماء كأنّه أعمى تحيّر ما لديهِ قائدُ
ناديت مَنْ طَرد الرُّقاد بصدِّه عما أعالج وهو خِلْوٌ هاجدُ
ياذا الذى صدع الفؤاد بهجره أنت البلاء طريفه والتالدُ
ألقيت بين جفون عينى حرقةً فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقدُ

وأرسل إليها هذه الأبيات فى رقعة وذيلها بقوله

وسعى بها ناسٌ فقالوا إنها هى التى تشقى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكون غيرُك ظنُّهم إنى ليعجبنى المحب الجاحدُ

ولما وقفت على الرقعة قالت للرسول: لقد بلغنى عنه أشعاراً يتغزل فيها باسمى، كأنه يريد أن يفضحنى عند سيدى، وإننى لا أستطيع أن ألقاه بعد تشهيره بى، ولما عرف جوابها أنشد:

لعمرك ما يستريح المحـــــبُّ حتى يبوحَ بأسرارهِ
وقد يكتم المرءُ أسراره فتظهر فى بعض أشعاره

لقـــاء

ودخل العباس يوما علـى محمد بن المنصور وفوز بين يديه ومعه حضور كثيرون، فقال له محمد: أنشد بعض ما قلت من غزلك يا عباس فإن غزلك رقيق يأخذ بمجامع القلوب، فأنشد:

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ
لا يضمر السوءَ إن طال الجلوسُ به ... عَفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

فلم يبق أحد في المجلس إلا طرب، وتعجب من حسن ما يأتي به من معان، وقال له محمد: زدنا مما قلت، حيَّاك الله، فقال:

راجعْ أحبَّتك الذين هجرتهم ... إن المُتيَّمَ قلَّما يتجنَّبُ
إن التجنُّب إن تطاول منكما ... دبَّ السلوّ له فعزَّ المطلب

فتبسمت له فوز، وقال السامعون: أحسنت ولله درك، وماذا بعد، فأنشد:

الحب أوَّلُ ما يكون لجاجةً ... تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لججَ الهوى ... جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعِرْ ... عينا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينَه تبكي بها ... أرأيتَ عينا للبكاء تُعار

فلم يبق أحد من الحاضرين إلا قال له: أنا أعيرك عيني، حاطك الله وحفظك، ونظر إلى فوز فغضت طرفها وخجلت، فأنشد:

قلبي إلى ما ضرَّني داعي ... يُكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوِّي إذا ... كان عدوي بين أضلاعي
أسلمني للحبِّ أشياعي ... لما سعى بي عندها الساعي
إن دام لي هجرك يا مالكي ... أوشك أن ينعاني الناعي

زيارة

رقّت فوز للعباس فواعدته في ليلة كان سيدها فيها غائبا، ولم يكد يصدق عينيه حين رآها، فوثب إليها وسلم عليها، وجلست فقالت له:

لابد للعاشق من وقفةٍ تكون بين الوصل والصَّرْمِ
يعتب أحيانا وفي عَتْبه إظهار ما يخفى من السُّقْم
إشفاقهُ داعٍ إلى ظنه وظنه داعٍ إلى الظلم
حتى إذا ما مضّه هجره راجع من يهوى على رغم

ثم أردفت: إني إنما صددت عنك، لما كنت أرى من عبرات تترقرق في عينك، وأخشى أن يعرف أمرك محمد بن المنصور، فيمنعك من لقائي، فأنشد:

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينيَ خيرا وجزى الله كل خير لساني
نمَّ دمعي فليس يكتم شيئا ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيٌّ فاستدلوا عليه بالعنوانِ

ومكثت قليلا، ثم استأذنت في الانصراف، فأذن لها على مضض وهو ينشد:

وإني ليرضيني قليلُ نوالكم وإن كنت لا أرضى لكم بقليلِ
بحرمة ما قد كان بيني وبينكم من الوصل إلا عُدْتُمُ بجميلِ

مكاتبة

وغابت عنه مدة لم يرها فيها، فهاج بلباله، وزادت به أشجانه، فكتب إليها رقعة، يقول فيها:

نام من أهدى ليَ الأرقا مستريحا زادني قلقا
لو يبيت الناسُ كلهمُ بسهادي بَيَّضَ الحدقا

كان لى قلبٌ أعيش به فاصطلى بالحب فاحترقا
أنا لم أُرْزَقْ مودتكم إنما للعبد مــا رُزِقا

فلما قرأت الرسالة قالت للرسول: لقد ظلمنا العباس، وإنى لزائرته، وضربت موعدا للقائه.

موعـد

ظل العباس ينتظر فوزا، وكانت قد تأخرت بعض الوقت، فداخلته الوساوس وهجمت عليه الهواجس وظن أنها لن توافيه، فبكى وأنشد:

أَحْرَمُ منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرتُ كأنى ذُبالةٌ نُصِبت تضيئُ للناس وهْى تحترقُ

ولم تمض إلا برهة يسيرة حتى أقبلت، فقالت له: معذرة إنى تأخرت لشغل عرض، ولم يكن لى طاقة بتأخيره، ثم أقبلت عليه، وقالت له: أنشدنى بربك آخر ما نظمته فىَّ، فأنشد:

إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وإن عوتب لم يُعْتبِ
صبٌ بعصيانى ولو قال لى لا تشرب الباردَ لم أشرب
إليك أشكو ربِّ ما حلَّ بى من صَدِّ هذا المذنب المُغْضَبِ

فقالت لا عليك، والله ما أتأخر عنك من صد ولا هجر، إنمــا هـو الشغل يحول بينى وبين لقائك وكلامك الحبيب إلى نفسى، فقال:

تعتلُّ بالشغل عنا ما تكلمنـــا الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

فقالت: أتظننى أملك أمرى، إذن ما فارقتك، ولا وجدت فى نفسى هذا النقص لعدم لقياك، وتشاكيا الهوى ثم قامت، فمضت.

مرض فوز

وجّه العباس رسولا إلى فوز، فعاد فأخبره أنها تجد صداعا وأنه رآها معصوبة الرأس، فأخذه الوجد بها ، وتمنى لو نقل الداء إلى رأسه فداء لها وأنشد:

عصبتْ رأسها فليت صُداعا قد شكته إلَيَّ كان براسى
ثم لا تشتكى وكان لها الأجْـــرُ وكنتُ السقامَ عنها أقاسى
ذاك حتى يقول لى من رآنى هكذا يفعل المحبُّ المواسى

وبرئت مما ألم بها من مرض، ثم نكست وبلغه ما صارت إليه من النكس فقال:

إن التى هامت بها النفسُ عاودها من عارض نكْسُ
كانت إذا ما جاءها المُبْتَلَى أبرأه من كفّها اللمسُ
وا بأبى الوجه المليح الذى قد عشقتْه الجن والإنس
إن تكن الحمّى أضرّتْ بهِ فربما تنكسفُ الشمسُ

شفاعة

وكان فى خلق العباس شدة فضرب غلاما له وحلف ليبيعنه، فمضى الغلام إلى فوز، فاستشفع بها إليه، فكتبت إليه فيه، فقال:

يا من أتانا بالشفاعاتِ من عند مَنْ فيه لجاجاتى
إن كنت مولاك فإن التى قد شفعت فيك لمولاتى
إرسالها فيك إلينا لنا كرامةٌ فوق الكرامات

ورضى عنه ووصله وأعتقه.

لقاء ووداع

مضت مدة طويلة لا تلتقى فيها فوز بعباس، فقلق وجزع وظن أنها قد

هجرته، فكتب إليها رسالة يقول فيها:

يا فوز يا منية عباسٍ واحربا من قلبك القاسي
أسأت أن أحسنتُ ظنّي بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق فآتيكمُ والقلب مملوءٌ من الياس

فقالت للرسول: إن الفرصة لا تواتيني، فعاد إليه وأخبره بما قالت، فكتب رسالة أخرى، يتفجع فيها على وصلها ويقول:

سلبتْني من السرور ثيابا وكستْني من الهموم ثيابا
كلما أغلقتْ من الوصل بابا فتحتْ لي إلى المنية بابا
عذّبيني بكل شيءٍ سوى الصـــدّ فما ذقت كالصدود عذابا

ولما قرأت الأبيات رقت له وقالت للرسول: إني زائرة له في يوم كذا. وجاءت، فوثب إليها وجثا عند قدميها، يشكو تباريح حبه، فأمسكت برأسه ووضعت يدها على صدره، وقالت: ليتني كنت لك، وبكت وبكى معها وأنشد:

ما أنس لا أنس يمناها معطّفةً على فؤادي ويسراها على راسي
وقولها: ليته ثوبٌ على جسدي أو ليتني كنت سِرْبالا لعباس
أو ليته كان لي خمرا وكنت له من ماء مُزْنٍ فكنا الدهرَ في كاس

وأقبلت عليه، فقالت له إن سيدي قد عزم على الحج، وسيأخذني معه، فأستودعك الله، وقامت، فمضت لوجهها.

فوز تحج

أخذ العباس يرقب خروج فوز لعله يراها وهي راحلة إلى حج بيت الله الحرام، ورأى راحلتها تعدو، وهي خارجة إليها فبكى وأنشد:

يا ربِّ رُدَّ علينا من كان أُنساً وزَيْنَا
من لا نُسَرُّ بعيشٍ حتى يكون لدينا

وغابت فوز عن عينيه، فجزع جزعا شديدا ومضى يسأل عن حجاج آخرين يحمّلهم إليها رسالة له، ووجد بعض من يعرفه معتزما على أداء الفريضة ، فكتب إليها:

أزَيْنَ نساءِ العالمين اجيبى دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريبِ
كتبت كتابى ما أقيم حروفه لشدة إعوالى وطول نحيبى
أخُطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرة تَسُحُّ على القرطاس سَحَّ ذَنوبِ
أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنتِ من الدنيا نصيبى فإن أمت فليتك من حور الجنان نصيبى
وإنى لأستهدى الرياح سلامكم إذا أقبلتْ من نحوكم بهبوب
وأسألها حملَ السلام إليكمُ فإن هى يوما بلّغتْ فأجيبى
أرى البَيْنَ يشكوه المحبون كلهم فيا ربِّ قَرِّبْ دارَ كل حبيب

وقدمت فوز من الحج وعلم عباس فأخذ ينشد فرحا مسرورا:

ألا قد قدمتْ فوز فقرّتْ عينُ عباسِ
لمن بشّرنى البشرى على العينين والراس

مغاضبة

ظل عباس ينتظر من فوز موعدا تضربه له بعد عودتها من الحج، ولكنها كانت انصرفت عنه إلى بعض شباب الجند، فكتب إليها:

ابكى الذين أذاقونى مودتهم حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

فلم ترد عليه ولا منّته وعدا. وطال جفاؤها له، وعرف أنها أحبت سواه، فعزم على تركها، ثم راجعته نفسه، فكتب إليها يتوسل ويقول: الإدلال يدعو إلى الإملال، ورب حب انقلب إلى كره وهجر، وقال:

ما أراني إلا سأهجر من ليـــس يراني أقوى على الهجْرانِ
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ما أضرَّ الوفاء بالإنسانِ

فقالت للرسول: إنه تغير لما يسمع من قول الوشاة، وإنه يَذْكرني بالسوء وأني أحببت فتى من فتيان الجند، وهذا شأني وحدي، فإن أحب أن يختلف إلى مجلس سيدى فليفعل، فلما سمع ذلك بكى وكتب إليها:

كتبتْ تلوم وتستردُّ مودتي وتقول لستَ لنا كعهد العاهدِ
فأجبتها ودموع عيني جَمّةٌ تجرى على الخدَّين غير جوامدِ
يا فوز لم أهجركمُ لملالةٍ مني ولا لمقال واشٍ حاسدِ
لكنني جرَّبتُكم فوجدتُكمْ لا تصبرون على طعامٍ واحدِ

وتمادى بينهما الهجر.

موت العباس

وظل العباس يندب حبه حتى أضناه، فخرج مع غلام له إلى بعض الرياض، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه وهو متهالك ضعفا، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنهْ مفردا يبكي على شجَنهْ
كلما جدَّ البكاء به دبّت الأسقامُ في بدنه

ثم أغمي عليه، فأقبل طائر فوقع على شجرة، وجعل يغرد ففتح عينيه، ثم أنشأ يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجاً طائرٌ يبكي على فَنَنِهْ
شفّه ما شفّني فبكى كلُّنا يبكي على سَكَنه

ثم تنفس تنفسا مديدا فاضت فيه نفسه، فحمله غلامه إلى منزله، وخرج الجواري يبكين عليه ويندبنه وبكاه أصدقاؤه ورفاقه أحرَّ بكاء.



المؤلف الدكتور شوقى ضيف

رئيس مجمع اللغة العربية وأستاذ الأدب العربى المعروف بكتساباته القيمة فى كافة فنون الأدب واللغة والنقد والبلاغة.

هـذا الكتـاب

الكتاب يؤرخ لموضوع الحب العذرى عند العرب مع مختارات من قصصه الذائعة الصيت من أمثال قيس وليلى وجميل وبثينة ....

ويعرض محتويات الكتاب ما يلى :

الحب ـ الحب العذرى ـ مجنون ليلى ـ جميل وبثينة قيس بن ذريح ولبنى ـ عروة بن حزام وعفراء كثير وعزة ـ توبة وليلى الأخيلية ـ الصمة وريا مالك وظريفة ـ ابن أبى عمار الناسك وسلامة ذو الرمة ومية ـ العباس بن الأحنف وفوز